

الدكتور فخر الدين قباوة

بحوث ودراسات في  
علوم اللغة والأدب

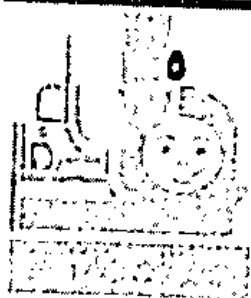
# مشكلة

## العامل النحوي

ونظرية الاقتضاء



**سلسلة البحوث والدراسات  
في علوم اللغة والأدب**



11.0.0.0

**الدكتور  
فخر الدين قباوة**

## مشكلة العامل النحوي

## ونظرة الاقتضاء

03/05/2012

010712170000

## المحتوى

| الموضوع                            | الصفحة |
|------------------------------------|--------|
| المحتوى                            | ٥      |
| المقدمة                            | ٧      |
| تمهيد: التفاعل الصوتي              | ١٥     |
| الفصل الأول: للعمل النحوي والإعراب | ٢٦     |
| ظاهرة العمل النحوي                 | ٢٧     |
| العمل الإعرابي                     | ٣٢     |
| ١- الإعراب التعبيري                | ٤٢     |
| ٢- إعراب التركيب                   | ٤٦     |
| ٣- إعراب البنية                    | ٤٨     |
| ٤- الإعراب التحليلي                | ٥١     |
| ٥- الإعراب الصوتي                  | ٦٠     |
| الفصل الثاني: نظريات لتفسير العمل  | ٦٨     |
| ١- النظرية اللفظية                 | ٦٩     |
| ٢- النظرية المنوية                 | ٧٦     |
| ٣- نظرية التعليق                   | ٨١     |

| الموضوع   | الصفحة |
|---|--------|
| ٤- النظرية الصوتية .....                            | ٨٤     |
| ٥- النظرية الخلافية .....                           | ٨٧     |
| ٦- النظرية الإنسانية .....                          | ٩٨     |
| ٧- النظرية الإلهية .....                            | ١٠٢    |
| ٨- النظرية الاجتماعية .....                         | ١٠٦    |
| <b>الفصل الثالث: الاقتضاء والعمل الإعرابي</b> ..... | ١١٣    |
| مقدمات نظرية .....                                  | ١١٥    |
| نظرية الاقتضاء .....                                | ١٢١    |
| ازدواج العمل الإعرابي .....                         | ١٢٧    |
| الرمز المركب .....                                  | ١٣٢    |
| مقتضيات العوامل .....                               | ١٤٤    |
| العمل والاصطلاح الإعرابي .....                      | ١٥٩    |
| الرمزية في العلامات .....                           | ١٦٧    |

## المقدمة

ألا كلُّ الحمد وكاملُ الشكر لرب العالمين، على مايسر لي من النعم،  
وهيا لي من العمل الكريم، وما رهني من الطمأنينة والرضا بجميع  
ماتيسر، وما وقفتي فيه من خدمة العلم وأصحابه وعبيده. والصلاة  
والسلام التامان الأكملان على سيدنا محمد، رسول الحق والهداية،  
وحامل راية الخير والصلاح للبشر أجمعين.

وبعد، فالعمل النحوي مسألة قديمة، تمثل عنصراً جوهرياً من  
مكونات الدرس والتحليل، في تاريخ النحو عند العرب. وقد انتشرت  
جزئياتها في المصادر القديمة والمتأخرة، والمراجع الحديثة والمعاصرة، حتى  
كاد لا يخلو من آثارها كتاب نحوي معتبر. ومن ثم توهم كثيرون، من  
الباحثين المعاصرين، ضخامة منزلتها في الدرس النحوي، وبالغوا في  
تهويل وظيفتها المنهجية، فزعموا أنها كانت توجه النحاة في توزيع  
الآبواب والمواد، وتبين على تفكيرهم وأنظارهم، وتتحكم في مسيرة  
البحث والتفعيد، والتنظير والتمثيل والتفسير والتعليل.

والحق أن أعمال القدماء ومن بعدهم كانت تسيّرنا فكرة الرظائف  
النحوية، وظواهر الإعراب المشتركة ودلالاته، وقد تردد مسألة العمل

## المقدمة

ألا كلُّ الحمد وكاملُ الشكر لرب العالمين، على مايسر لي من النعم،  
وهيا لي من العمل الكريم، وما وهبني من الطمأنينة والرضا بجميع  
ماتيسر، وما وفقني فيه من خدمة العلم وأصحابه وعبيده. والصلاة  
والسلام التامان الأكملان على سيدنا محمد، رسول الحق والهداية،  
رحامل راية الخير والصلاح للبشر أجمعين.

وبعد، فالعمل النحوي مسألة قديمة، تمثل عنصراً جوهرياً من  
مكونات الدرس والتحليل، في تاريخ النحو عند العرب. وقد انتشرت  
جزئياتها في المصادر القديمة والمتأخرة، والمراجع الحديثة والمعاصرة، حتى  
كاد لا يخلو من آثارها كتاب نحوي معتبر. ومن ثم توهم كثيرون، من  
الباحثين المعاصرين، ضخامة مؤثراتها في الدرس النحوي، وبالغوا في  
تهويل وظيفتها المنهجية، فزعموا أنها كانت توجه النحاة في توزيع  
الأبواب والمواد، وتبين على تفكيرهم وأنظارتهم، وتتحكم في مسيرة  
البحث والتقصيد، والتنظير والتمثيل والتفسير والتعليل.

والحق أن أعمال القدماء ومن بعدهم كانت تسيّرهما فكرة الوظائف  
النحوية، وظواهر الإعراب المشتركة ودلالاته، وقد تكرر مسألة العمل

ضمن ذلك الميدان في المسارب التي يقتضيها البحث، من دون هيمنة أو تحكم أو توجيه. ثم شُغل بعض المتأخرين بأهمية هذه المسألة، وأكثروا من ذكرها والاعتماد عليها، فكان ماتوهمه المعاصرون وبالفرا فيه، على غير تحقيق وتوثيق.

ولأن القدماء أغفلوا تفسير مفهوم العامل بدقة واستيعاب، وألقوا في معارضه عبارات مرزعة متداخلة، لا يضمها مذهب واضح السيل، أو اتجاهات محددة القسّمات، فقد تنازعت أقلامُ الباحثين والدارسين وأفهامهم، في رصد الأحياء التي تتحرك فيها توجهات النحاة، من هذه المسألة الأصولية المهمة. ولذلك انصبت مئات العبارات في الكتب والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، تحاول التفسير والتوجيه والتفويم والنقد، أو الشكوى والتذمر والتهكم والازدراء، لاستبعاد مسألة العامل النحوي عن منصة الحياة التعبيرية في لغة العرب.

كذلك تلقينا القضية، على أنها مشكلة تخوض فيها الأبحاث والدراسات الموضوعية، من جميع المستويات العلمية والثقافية، محاولة إيجاد السيل القويم، في فهمها وتحديد أبعادها، ووضع البؤرة النشطة منها تحت يديّ الدرس النحوي وبصره. وقد تبعت تلك الأفلام والأفهام، أرصد مراكزها وتشعباتها، راجع ما سجله شيوخ النحاة القدماء والمتأخرين والزملاء المعاصرون، لعلّي أجد في المحصلة وجهة تحقق الاستقرار، وتحل المشكلة حلاً لغويّاً عربياً خالصاً، فكان لديّ حصائل متباينة يتعذر وضعها في قفص واحد، ولا تمس جوهر الموضوع مسأله نحويّاً رقيقاً.

ولذا رأيت، بعد متابعتي هذه، أن يكون عنوان البحث في هذا الكتيب المتواضع «مشكلة العامل النحوي، ونظرية الاقتضاء»، فأدرس المسألة دراسة تاريخية، وأوضح مفهومها الأساسي، وأعرض مآثرها من النظريات والتوجهات، لأنتهي باقتراح يضع الحل القريب من واقع العربية، ومفهوم العمل في العلوم الإنسانية. ونتيجة لهذا انقسم البحث لذي، في تمهيد وثلاثة فصول.

فتمهيداً لتوضيح طبيعة المشكلة، لزماني أن أوقف القارئ على ما في اللغة عامة، والعربية خاصة، من تفاعل صوتي ظاهر، يتوزع في تضاعيف الصور الفيزيائية للحروف والحركات. وهنا بسطت ما خلقه علماء اللغة والقراءات، من تأثير الأصوات بعضها ببعض، فتغير سمات كثيرة لها، متمثلة في التفتيح والترقيق والمد والنبر والإمالة والإبدال والإعلال والإدغام... ومن هذا المنطلق، استطعت أن أضع اللبنة الأولى للبحث الموضوعي.

ثم انتقلت إلى الفصل الأول، حيث وقفت إزاء العمل النحوي والإعراب، فإذا باللغات الإنسانية تقيم بين أبنائها فنوات اتصال عاطفية، أسميتها بالانفعال اللغوي. وكذلك هو شأن العربية، مع خصوصية متميزة، هي العلاقات الحميمة بين المفردات في التركيب. وقد استشعر النحاة هذه الظاهرة الانفعالية، وسطروا ما تمثل من تفاعلات صوتية ومعنوية في الأداء، وأطبقوا على تسميته بالعمل.

وحين عرضنا هذا العمل، على مفهوم النحو نظراً وتطبيقاً، تبدى لنا أنه ينحصر في قسم عديد من النحو، فلا يبرز تعميمه كما يسمى على مر



التاريخ، ولا بد من تقييده بالجانب الذي يشغله -وهو الإعراب- فكان أن أسميناه: العمل الإعرابي. ومن ثمّ وجب أن نعرض أنواع الإعراب، لنضع هذا العمل في إطاره المخصوص، فكان لدينا: الإعراب التعبيري، والإعراب التركيبي، وإعراب البنية، والإعراب التحليلي، والإعراب الصوتي.

وقد اتضحت معالم كل منها بالشرح والتفصيل، ليتوضّع العمل المقصود في الأخير منها، وإن غاب ذلك عن كثير من المعاصرين، فكان منهم تخليط واضطراب. بيد أني، مع هذا التحيز المتميز للعمل في ميدان الإعراب، أبقى العنوان في ميدان النحو، مجازاة للمصطلح الشائع، إذ لاُمّاحة في الاصطلاح. ومن هنا انطلقنا نتابع ما يحتاجه البحث، من عرض وتحليل وتقويم للأنظار المختلفة، في مفهوم العمل الإعرابي.

ففي الفصل الثاني، استقصينا نظريات تفسير هذا العمل، من خلال المصادر والمراجع، فتشعبت إلى مايلي: النظرية اللفظية. وهي ترّد القيام بالعمل إلى الألفاظ، ثم ترى أن منها الأصلي والفرعي والقوي والضعيف والملفوظ والمقدر، وتختلف توجهات أصحابها في تحديد اللفظ العامل أحياناً. وتقابلها النظرية المعنوية، التي تنص على أن الوظائف الإعرابية هي مركز العمل، وصاحبة النشاط في التركيب.

ثم ترد نظرية التعليق. وهي تعني أن الكلمة التي لها معنى في أخرى تشبث بها، ويتطلب هذا المعنى أثره المعبر عنه، فتقوم الكلمة المذكورة بالعمل اللازم له. أما النظرية الصوتية فتنسب إلى الخليل أنه فرّغ حركات

الإعراب، من كل دلالة نحوية، وجعلها للتخلص من الثقل حين وصل الكلام بعضه ببعض. وأما النظرية الخلافية فزعيمها قطرب الذي وافق الصوتية في بعض جوانبها، وحصر وظيفة الحركات هذه في تمييز الإدراج من الوقف، وفي المساعدة على اعتدال الكلام.

وسادس المقولات المطروحة هي النظرية الإنسانية، وزعمائها معتزلة النحاة الذين يرون أن الإنسان هو العامل الإعرابي، لأنه مصدر الأحداث ومركزها، في جميع ميادين حياته. والسابعة هي النظرية الإلهية، وزعيمها ابن مضاء الذي مثل مذهب الظاهريين، وردّ العمل إلى الله وحده. والأخيرة أسميناها بالنظرية الاجتماعية، لأنها ولدت في بيئات تنسب إلى المجتمع كل نشاط إنساني، وتفسره بالأعراف والضوابط السلوكية.

وقد بسطنا أبعاد هذه المقولات الثماني، مع أدلتها وتفسيراتها، ثم وقفنا على كل ذلك بالاختبار والتقويم، فإذا هو قاصر عن استيعاب ظواهر الإعراب، وإن كان له يد في تفسير بعضها، بعد استبعاد نظريتي الصوت والخلاف، لما فيهما من وهم ومغالطة. ونتيجة لذلك انتقلنا إلى الفصل الثالث، حيث طرحنا «الاقتضاء والعمل الإعرابي». وهنا تبيننا ما للنظريات السابقة، من نقاط التقاء واختلاف، واعتماد على مقولات منشورة في مصادر التراث، صريحة مؤيدة أو خفية مؤولة بالضغط والإكراه.

ولكي نغيز مفهوم العمل الإعرابي، تناولنا المصطلحات التي تتصل به

في الحقل المنطقي، فعرضنا مفاهيم: السبب والعلّة، والشرط والركن، والدليل والقرينة، والملزوم واللازم... وقد تبدى أن هذه العناصر المنطقية تُماسّ العامل المذكور، ولكنها لا تطابقه في الوظيفة والأداء. ولهذا يعمنا شطر عنصر موضوعي، هو الاقتضاء، نتوسم فيه حل المشكلة المتأزمة منذ قرون، ثم استعنا بمفهوم العامل في ميادين العلوم الطبيعية والتطبيقية والإنسانية، فكان لدينا تقارب ملحوظ، يحدد العنصر اللغوي العامل في الإعراب. أعني عنصر النشاط المباشر في تلك الظاهرة العربية المتميزة.

ولأن التعبير اللغوي فكر وصوت وشكل، كان التفكير والصياغة أبرز ما يحدد شخصية العامل، وكان توزع النحاة القدماء بين مظاهر اللفظ ومؤيد للمعنى، في الخلاف المعروف. وإذا جمعت بين الشطرين رأيت العامل ذا طبيعة ازدواجية، لأن المادة والمعنى هما العنصران المتفاعلان في التركيب. وعليه فإن العامل هو المقتضي، أي: الرمز اللغوي الذي يدل على معان تركيبية، ويقتضي بلفظه ومضمونه في المقام والسياق ومقصد المتكلم ما يعبر عن ذلك. ومن هنا كان للفظ الواحد حاجات وآثار مختلفة، بحسب نمطه ومضمونه وموقعه ومقاصده ودلالاته ووظائفه.

فالكلمات المفردة غالباً ما تكون غنية عن المساعدة، وصالحة للامتزاج بآلاف الأخوات، مادامت خارج التركيب. وعندما تدخل حيز التعبير تصبح بذرة نشطة، تقتضي عناصر خاصة، تنفرغ لها وتُشغّل بها وحدها، لتملأ حاجاتها وتتمّ الدارة التي افتحتها. وهذا يسر لها أن تترك آثاراً صوتية، تحدد وظائف تلك العناصر، وتشدها إليها في التركيب. ولما

يتسم به الفعل من ظهور الحدث فيه، ومن حيوية ونشاط واستطلاات، كان أبرز العناصر في عملية التبشير هذه، ثم تلت المفردات التي تشارك الفعل في الحَدَثِيَّة، كالمشتقات والمصادر وحروف المعاني.

ومن خلال هذا التوجه، استطعنا أن نوضح وظائف العوامل الحَدَثِيَّة، ثم تناولنا ما كان ذاتياً خالصاً من الدلالة على الحدث، وحددنا عمله فيما يقتضيه، من مفردات تحقق مقاصد لفظه وحاجاته، كالمضاف والموصوف والمبهم وصاحب الحال والمبتدأ... وأوضحنا دلالة التجرد في الحقل الإعرابي، للعمل في المبتدأ والفعل المضارع.

وختمنا هذا كله بتفسير بعض المصطلحات الإعرابية، كالفاعل والفاعل والمفعولات المشهورة... لتتضح نظرية الاقتضاء. وهنا ظهر كثير من دقائق صناعة النحاة، في فهم موضوع الإعراب، وإقامتهم المنظومة النحوية المتكاملة، وظهر أيضاً أن العلامات الإعرابية هي تكثيف كلمات أو عبارات، كانت تتضمن الدلالة على الوظائف التركيبية، شأن كثير من الرموز الصوتية المتعارفة، في اللغات عامة والعربية خاصة.

تلك هي الرحلة مع مشكلة العامل، والنظريات المقترحة لتفسيره، عرضتها محلاً وناقداً، وذيلتها بما رأته منقذاً من الإشكالات، بالأدلة والحجاج والشواهد والأمثلة، مع الحفاظ على حرمة الطبيعة اللغوية للموضوع. وبذلك سددت أبواباً كثيرة من التأزم، وفتحت باباً جديداً للحوار والبحث، آملاً أن يجد لدى الزملاء مجالاً للتنويم والتوجيه. فهو

موضوع جللي خصب، بحاجة إلى التعاون والتواصل، للسير به إلى ما هو الحقيقة نفسها، أو ما يكون أقرب شيء إليها. **والله اعلم**  
**و أسأل الله أن يمدنا بالعون والهداية إلى الصواب، ويجعل أعمالنا**  
**خالصة لوجهه الكريم. والحمد والشكر له وحده على كل حال.**

حلب في ١ رمضان سنة ١٤٢٢هـ  
 ١٦ / ١١ / ٢٠٠١م

الأستاذ الدكتور

فخر الدين قنارة

أستاذ الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب  
 رئيس قسم الفقه والحديث في جامعة حلب

مقدمته  
 مقدمة  
 مقدمة  
 مقدمة  
 مقدمة  
 مقدمة  
 مقدمة  
 مقدمة

## تمهيد

### التفاعل الصوتي

في ميدان الحياة، يلتقي الناس بعضهم وبعض، فيكون بينهم تواصل وتعاون ووثام، أو خلاف وتنافر وخصام. وعن هاتين الحالتين المتناقضتين، تُنتج تفاعلات مادية ومعنوية، منها الظاهر الملموس، ومنها الخفي داخل النفوس. وقد عبر الحديث الشريف عن هذا، بالجلوس الصالح كصاحب المسك، وجليس السوء مثل كير الحداد. فالأول ينفحك الروائح الطيبة والسرور، والثاني ينالك شرره أو رائحته الخبيثة مع الكدر. وقد يكون هذا التفاعل قوياً، يُعرف أثره في الإنسان بمن يصاحب ويخالس، حتى قيل:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ

نَكُلُّ قَرِينٍ، بِالْمُقَاوِنِ، يَفْتَدِي

أي: يتمثل خلقه وعاداته وتصرفاته. ولذا ترى الناس يتحرّون صلاح الجار، والشريك والرفيق والصديق والزوج، طلباً للخير وبعداً عن

البلاء، وهم يعلمون أن ما يصدر عن مختارون قد يلبسهم وتحملون تبعته، إذ طالما أخذ الجار بظلم الجار!

وكذلك شأن المواد في الوجود. فهي تتوضع بحكمة ربانية، في طبائع وأشكال مختلفة، تفرق وتلتقي وتتماس وتمتزج وتختلط، وتبادل صوراً من التفاعلات لانهضي، ليتحقق استمرار الحياة وتأمين حاجاتها المتكاثرة. وإنك لترى وتحس ضروب هذه التفاعلات في كثير من مظاهر الكائنات:

فالأشكال الهندسية تتبادل التأثير، حين تلتقي أو تتداخل أو يقرب بعضها من بعض. حتى ليكتسب كل منها صفات، تخالف صورته الأصلية فيما تدركه الأبصار. والألوان تتوضع متجاوزة أو متقاربة أو متمازجة أو متقابلة، فيضفي بعضها على بعض أصداء من التشكلات الجديدة. وقريب من ذلك ما يكون في الحركات المختلفة، والطعوم والملامس والروائح والأصوات...

حتى الظلال يتدخل فيها مثل هذه التبادلات، فيكون بينها انفعال بالتمازج والتجاور والتقارب، ينعكس في الأشكال والألوان والحركات. ولو أنك راقبت ظليين يتقاربان مثلاً لرأيت أنهما، قبل أن يتماسا، تمتد منهما ذراعان لطيفتان بالجاذبية المغناطيسية، لتقيما جسراً دقيقاً واصلًا ما بين الطرفين. وسرعان ما تتسرب منه الدفقات يمته وسرة، ليتكون الشكل الجديد، من التفاعل والتداخل والامتزاج!

إنها تفاعلات فيزيائية وكيميائية، تتخللها تفرجات كهربائية

ومغناطيسية، تنقل ضروب التأثير والتأثير، وتوحد التماذج الجديدة، أو تضع أشكالاً متميزة عما كانت عليه المواد قبل. وكثيراً ما يكون للتفاعلات هذه حضور بين هذه الأجناس المتمايزة، سواء أكانت مجتمعة في مكان وزمان، أو متوالية متباعدة. على أن أوضح ما يكون من التفاعل يصدر عن العناصر المتماثلة أو المتقاربة، إذ تتبدى قنوات التواصل معقدة، والأوضاع قابلة للتأثر والتأثير، فيما هو سلبى أو إيجابى. ولذلك قيل:

وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ، مِنْ جَنْبِهِ

حَتَّى الْحَدِيدُ سَطَا عَلَيْهِ الْمِرْدُ

والتواصل اللغوي الذي نحن بصدده هو ظاهرة فيزيائية، مع أنه سلوك اجتماعي بين الناس. ذلك لأن التكلم ضرب من المادة المتحركة. فبسبب حدوث الصوت - كما يقول ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨) - تموج الهواء دفعات بسرعة وقوة، لاصطدام بعض أجزاء الأجرام ببعض. إنه التموجات الهوائية المشكلة من تحركات جهاز التصويت، بالتقلص والاهتزاز والاحتكاك والاحتباس والانطلاق، ممتزجاً بعضها ببعض، ليتج ما يقرع الأذان، ويصل إلى المدارك والوجدان. فليس بعيداً أن تجد تفاعلاً ظاهراً بين هذه التموجات، حين تلتقي أو تتماس أو تتجاور أو تتقارب، يولد تلويناً صوتياً لبعض منها، لم يكن له من قبل.

وعلى هذا، فإن صوت الحرف الواحد يتأثر بالحركات التي تجاوره، إذ تمتص بعض خصائصه ومميزاته، فيكون له صورة مغايرة لما هو عليه في الأصل. بل إن كل حركة تلونه بما يناسبها، فيصير ذا أشكال مختلفة،



يوحد بينها صوت منه أساسي، ممتزجاً بطوابعها المتميزة. ثم هو يلونها أيضاً بلمسات من خصائصه وصفاته، فتظهر بأشكال متميزة. ولهذا فإن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥)، عندما أراد تصوير أصوات الحروف، وضع فرضيات متعددة لاكتشاف حقيقة التصويت للعنصر المفرد. ففي باب تحت عنوان «إرادة اللفظ بالحرف الواحد»<sup>(١)</sup>، ذكر سيبويه أن الخليل سأل أصحابه عن كيفية لفظ الكاف من نحو «لك»، والباء من مثل «صَرَب»، ف قيل له: كاف بَاء. فأجاب أن هذا اسم الحرف لا لفظه، وأن الصواب: كة، بة. وإذا وصلت قلت: ك و ب فاعلم. ويجوز أن تزيد الألف بدلاً من الهاء، فتقول: كا، با. ثم سألهم عن كيفية لفظ الياء من نظير «غلامي»، والباء من مثل «اضرب»، والdal من نحو «قد»، ف قيل له مثل ما قيل في المرة الأولى، فبين لهم أن الصواب: إي، إب، إذ، بإلحاق همزة وصل قبل الحرف.

وعندما أراد الليث بن المظفر أن يمهد لكتاب «العين»، ذكر عن أستاذه الخليل أيضاً أنه كان يتذوق الحروف، ليكتشف أصواتها ومراتبها في المدارج المحددة، ويوزعها تبعاً لذلك في مواقعها المناسبة لمخطط معجمه المعروف. قال: «وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف [أي: الهمزة]، ثم يُظهر الحرف. نحو: أب، أث، أخ، أغ، فوجد العين أدخل الحروف في الخلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها. وهو الميم»<sup>(٢)</sup>.

(١) الكتاب ٢: ٦١-٦٢. في هذه ما يلاحظه، وقال يونس: «هذا العنصر متفق عليه».

(٢) العين ١: ٥٢. في نسخة «العين» ما يلاحظه، وقال يونس: «هذا العنصر متفق عليه».

وهكذا كان للخليل خمسة أشكال، من المحاولات، لتبيين الصوت الجوهري للحرف العربي. ولما وقف ابن جني إزاء هذه المسألة اختار الرابعة منها، فقال: «سبيلك»، إذا أردت اعتبار صدى الحرف، أن تأتي به ساكناً لا متحركاً، لأن الحركة تُقلق الحرف عن موضعه ومستقرّه، وتجذب به إلى جهة الحرف الذي هي بعضه، ثم تُدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: إك، إق، إج<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ عليه اللغويون المعاصرون اليوم أن إدخال الهمزة هذه يكون عاملاً، في تكوين الصوت الملفوظ، فلا يبقى للحرف ما أريد له من تميز وخصوصية في شخصيته. ومن ثم اقترحوا أن يُلفظ الحرف بالسكون وحده، لتصوير الصوت الخاص به. وعندني أنهم غفلوا أيضاً عما يضيفه السكون من عمل، في الشدة أو التقليل أو النبر أو الصفير أو الانفجار أو التطاول، للحرف الذي يتقدمه. ولو تيسر لفظ الحروف دون ذلك لكان ما يريدونه، من الصور الحقيقية المتمايزة.

وكأنني بالخليل كان يدرك هذه التأثيرات الانفعالية، للحرف المؤدى، بما قبله أو بعده، قرأى أن الشكل المفرد للأداء غير كاف في الدلالة والتحقيق. ولذلك بسط الصوت الواحد بأشكال عملية خمسة، ليكون القاسم المشترك بينها من التصويت هو الصورة التقريبية للحرف المقصود. وقد غاب هذا عن المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، فيما أعلم، فكان بينهم ما رأيت من التوجهات.

(١) سر صناعة الإعراب ص ٦-٧.

والجدير بالذكر أن علماء القراءات كانوا أسبق من اللغويين، في متابعة هذه الظواهر الصوتية، حين رصدوا سلوكها بالذوق والتحسس، فيما يؤدون من تلاوة للقرآن الكريم، ثم سجلوا ما تحقق لديهم منها بدقة وعناية واهتمام. ومن خلال ذلك، باثروا تحديدها وتعليمها من يقصدهم، حباً بهذا الكتاب العظيم، ودونوا علماً امتدت فروعه، وتناولت إنجازاته في تاريخ العلوم الإسلامية.

فقد تبين لهم، من خلال التدقيق للتلاوة وملاحظة الأداء، أن الصورة الصوتية للحرف الواحد تتأثر بما حوّلها من الأصوات، فتأخذ طوابع جديدة تناسب ذلك المحيط. وهي نفسها تؤثر فيما تجاوره أيضاً، فيتشكل نسق مغاير لمجموع ما يمثله التركيب من الحروف. ومن ذلك أن الألف تلتون بحسب ما قبلها من الأصوات، فتكون فخمةً بعد أحرف الاستعلاء «ق ظ خ ص ض غ ط»، وأفخم بعد المُطَبِّقة منها «ص ض ط ظ»، ورقيقةً بعد سائر الحروف. ولذا تتذوق أنت المفخمة، فتجدها بين الألف والواو في مثل: قامَ وصالح. الأمر الذي حل كتاب المصاحف الشريفة، على رسم «الصلوة والزكاة والحيرة والربو» بالواو، لأن الألف أشربت في اللفظ بعض الواو<sup>(١)</sup>.

وعندي أن هذا يقتضي تأثر الياء والواو المَدَّيتين أيضاً، بأحرف الاستعلاء عامة، وبالمُطَبِّقة منها خاصة، فتكونان بعدها أفخم منهما بعد غيرها. وكذلك حال أحرف المَدِّ الثلاثة، إذا وقعت قبل تلك

(١) سر صناعة الإعراب ص ٥٠.

الحروف، فإنها تميل نحو التثخيم، ليتيسر النطق بما بعدها، ولا تكون النقلة بين متافرات. ومع هذا، فقد خص أكثر العلماء الألف بما ذكرت، وأغفلوا ما يكون لأختيها من ذلك. ثم إن أحرف المَدّ هذه تتناول، قبل الساكن والمهموز - وهما من الأصوات الثقيلة اللفظ - ليتسنى اتصال التصريت بين سكونها وصعوبة ما بعدها<sup>(١)</sup>. وقريب من هذا ما يكون، إذا وقعت الهمزة قبل واحد من المدود أيضاً.

واللام مثلاً، تتلون بظواهر من التثخيم والترقيق، تبعاً لما حولها من العوامل أيضاً. فهي في لفظ الجلالة تكون مفخمة، ظاهرة القوة والضخامة. وإذا وقع لذلك الاسم العظيم قبلها كسر مباشر أو سابق لباء محذوفة لفظاً، زال عنها التثخيم المذكور، وصارت إلى الرقة والسهولة، ليكون انسجام في سياق اللفظ المتواصل. وكذلك تميل إلى الرقة، في المواقع المختلفة، إذا جاورها حرف تثخيم، نحو: حلق، سلخ، اختلط، سلطهم، يتلطف، ولا الضالين.

والهمزة تفقد بعض نبرها، إذا بدئ بها في اللفظ، للحركة التي تلابسها، وكثيره حين يكون بعدها ألف، أو أحد حروف الاستعلاء، وأكثره إن وقعت قبل حرف حلقي، وتحتفظ بشدتها فيما دون ذلك، ثم تزداد نبراً مع السكون. وكذلك يكون تصريت سائر الحروف مع السكون أقرب إلى الدقة والكمال، ويفقد بعض قيمه الصوتية في أول الكلمة، ومع الحركات أو ما يُضعفه من الأصوات المجاورة. فالباء تترقق، حين يرد

(١) النشر في القراءات العشر ١: ٢١٢-٢٢٠.

بعدها حرف مفخّم أو اثنان مفخّمان. وقد تنجذب السين قبل الحرف المطبق، فيجب على القارئ أن يعتني بانفتاحها واستفالتها، لئلاّ تصير صاداً. وقد تجذب الألف صوت العين قبلها إلى التفخيم، فيتعيّن على القارئ أيضاً أن يحترز من ذلك، فيحفظ مالها من الجهر والشدة.

والنون تبدل ميماً بغنة، أي: بصوت يتسرب من الأنف في مقدار حركتين، كلما كانت ساكنة قبل باء. ثم تصير من لفظ ما بعدها مع الغنة، إذا وقعت طرفاً ساكنة، وبعدها أحد أحرف «يومن»، وبلا غنة إذا تلتها الراء أو اللام. بل إن كل حرف يتشكل تصويته، تبعاً لما حوله من العوامل: حركات أو سكّنات أو أحرف ونبر وتنغيم. ثم إن أحرف الاستعلاء يكثر تفخيمها، إذا كانت مفتوحة، ويكون أشدّ حين تقع قبل الألف، ويضعف منها التفخيم لوتوعها قبل ضم، ويشدّ ضعفه قبل كسر. وقد أطال العلماء تفصيل ذلك، مما يتعذر إبراده في هذه العجالة<sup>(١)</sup>.

وهذا كله يتبدى في الأصوات بشكل عام، قبل أن تدخل التركيب في بنية المفردات. حتى إذا صارت في صيغة لفظية، من الأسماء أو الأفعال أو الحروف، خضعت لتطورات جديدة تصقل الألفاظ، وتكوّن منها صورة انسيابية متساوقة الأجزاء، أداؤها لا يوازي مجموع الأصوات المشتركة فيها، وإنما هو كل مطبوع بالوحدة والتجانس والانسجام. وذلك ما عرف بقوانين الصرف المشترك، من إبدال وإعلال وإدغام، والتقاء ساكنين، وتخفيف للهمز، وابتداء ووقف، وإمالة للألف والراء وبعض الحركات.

(١) المصدر السابق ٢١٥-٢٢٤. وانظر جمال الفراء وكمال الإقراء ص ٦٤٤-٦٦٥.

وقد حاول المعاصرون تحليل هذه القوانين، وردها إلى مظاهر صوتية موحدة، ثائراً بالدرس اللساني المعاصر، فكان عندهم: المجانسة والمماثلة والمخالفة. ولكنني عندما وقفت موقفهم، إزاء بحث عنوانه «الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد»، تبدى لي قصور ماذكروه عن شمول الظواهر الصرفية، وأنه تضاف إليه مظاهر أخرى، هي<sup>(١)</sup>: المشاكلة والممازجة والمناظرة، والوصل والفصل، والتخفيف والتمكين، والتخلص والحذف والإضعاف...

وإذا كان من العسير تفصيل ذلك هنا فحسبي الإشارة إلى جانبين ظاهرين، من المجانسة: أولهما في الإبدال. فقد يتناول الحرف هذا التغيير بسبب عامل صوتي يليه مباشرة، أو يقع بعيداً منه. وهذا مايمثله إبدال السين صاداً في نحو: سطح وأصبغ وسراط ومصاليخ، إذ يقال فيها: صطح وأصبغ وصراط ومصاليخ، بالصاد الصريحة أو بين بين. ومن الإبدال أيضاً ما هو لغوي كثير منتشر، أفاضت فيه كتب خاصة، صنفها أمثال ابن السكيت والزجاجي وأبي الطيب اللغوي.

والثاني من الجانبين هو الإمالة، حيث تنكسر حدة الفتحة والالف، فتوجهان نحو الكسرة والياء، لمناسبة عوامل صوتية قبلها أو بعدها، فيصير اللفظ في خط منحن، بعد أن كان منكسراً في زاوية حادة. وعلى هذا تجد مد الالف في نحو: ساجل وعِمَاد ورِيَال وريَان ومَسَائِل وحُبْلَى وديباج وشَيَان ومَفَاتِيح، يعيل إلى الياء بدرجات متفارقة بين المتكلمين.

(١) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ص ١٥٩-٢٣٢.

ثم تتدخل عوامل ثانوية، من الراء وحروف الاستعلاء، فتكون مانعة أو مساعدة للإمالة، بحسب موقعها والحركات التي تحملها.

والغريب حقاً أن تكون هذه الظاهرة، في بعض الأحيان لعوامل بعيدة جداً، كالذي يقع في فواصل الآيات الكريمة: ﴿وَالضُّحَى﴾ واللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى<sup>(١)</sup> إذ تظهر الإمالة في الأولى والثانية، لوقوعها حُكماً في الثالثة. ومثل ذلك الإمالة المركبة، في فواصل آيات سورة «الشمس». أضف إلى هذا ما يكون من إمالة للفتحة قبل تاء التانيث في الوقف نحو: مِهْنَةً، بَلَدُهُ، جُمْلَةً، ومن إمالتها وإمالة الضمة إذا كان بعدهما راء مكسورة نحو: مَنْصَرَفٍ وَالْأَسْطَرِ، وَمَنْذَشَهْرٍ وَبَعْدَ عُمِرٍ، وَأُمٍّ مَذْعُورٍ وَذَنْبٍ ثَوْرٍ. ثم تتدخل بعض الصوتيات، فيكون لها أيضاً آثار سلبية أو إيجابية.

وقد ظهر، من خلال البحث المذكور قبل، أن الظواهر الصوتية المحللة تخضع، لعوامل من نوعين اثنين: أحدهما هو العلة الفاعلية، إذ يكون للأصوات أثر فعال، في تشكيل الصيغة الحاضرة، من مثل المشكلة، وكثير من صور المجانسة والمخالفة والمماثلة والممازجة والتمكين والتخلص والحذف. والآخر هو العامل المقتضي، حيث يكون الصوت متطلباً للتغيير، موجباً أو مجيزاً للتصرف في الصيغة، لافاعلاً في ذلك، من مثل المناظرة والوصل والفصل والتخفيف والتمكين والإضعاف، وبعض المجانسة والمماثلة والمخالفة والممازجة والتخلص والحذف.

(١) الآيات ١-٣ من سورة الضحى.

ثم عندما تتواصل المفردات في التركيب النحوي، لتأليف الجمل والعبارات، يحصل بينها تفاعل صوتي جماعي، بعضه امتداد لما عرفناه في الظواهر الصرفية، ويشمل جميع المفردات، والبعض الآخر يتوَّضَع ظاهراً أو مقدراً، في أواخر الأسماء وقليل من الأفعال، رده العلماء إلى ماسمي بالعامل النحوي. وقد اضطربت المذاهب والأقوال، في تحديد هذا العامل وبيان طبيعته، مما أنشأ نظريات مختلفة، نعرض لها فيما يلي، ثم نتبع ذلك بمذهب رأيناه أقرب إلى الصواب، آملين أن يكون له صدى ظاهر، في الدرس النحوي المعاصر، إن شاء الله تعالى.



## الفصل الاول

### العمل النحوي والإعراب

اللغات في العالم الحي، كما يرى رجال البحث والدراسة، أداة تعبيرية للتواصل بين أصحابها. فهي تنقل المقاصد والأفكار والعواطف والأخيلة والتجارب، بأخصر ما تحتمله وسائل التعبير. وهذا فهم جيد للوظيفة اللغوية في الحياة، يمكننا أن نضيف إليه ملحظاً جوهرياً آخر، هو العلاقة الحميمة بين الممارسين للغة معينة، وماتثيرة فيهم من اندفاع وتعاطف، نجيز لأنفسنا أن نسميهما بالانفعال اللغوي.

فالعربي مثلاً إذا كان في بلد أعجمي مقاطع للعروية، وطرقت سمعه عبارات ذات رنين وأصداء عربية، تراه يتدفق بحماسة وتودد إلى مصدر التصويت، ويستجيب لذلك الانفعال تلقائياً، على غير وعي أو إرادة أو تفكير. وكذلك حال أبناء اللهجة الواحدة، حين يلتقون في بلد بعيد عن وطنهم الأم، تراهم يمثلون خلّة يشد أطرافها وحدة اللسان، وما تضمه من حماسة ووجدان.

تلك حقيقة واقعة مقررة، هي جزء من طبيعة الحياة اللغوية، ووظيفتها في الوجود. ولكي تكون لغة العرب صميمية في هذه الطبيعة المتميزة، لم تكتف بالتمثل الإنساني الخارجي للانفعال المذكور، وإنما أقامت بين عناصرها اللفظية في التعبير علاقات حميمة أيضاً، تشبه ما يخالج نفوس أبنائها من التواصل اللغوي، وتظهر في شكل تأثير حيوي متبادل بين الكلمات، فلما تجد له نظيراً في سائر اللغات.

### ظاهرة العمل النحوي

ولقد لاحظ أوائل النحاة ألوان ذلك التأثير، وتبعوا أمواجه ومنعطقاته ومصادره، فبين لهم أن التركيب النحوي في لغة القرآن الكريم مثلاً ليس جمعاً آلياً للمفردات، يحتفظ فيه كل منها بشخصيته المتميزة كما كانت قبل، للدلالة على المقاصد الربانية، بل هو تشكيلٌ تعبيرٍ متفاعل يؤثر بعضه في بعض، قبل أن يؤثر في المتلقي، وتسرّب بين عناصره التركيبية ومضات من التجارب والتعاطف، حتى يكون وحدة حيوية متكاملة للدلالة على المرامي المقصودة.

ثم إذا دخل في العبارة المعينة عنصر لغوي طارئ، أو أبدل لفظ بغيره، سرت أمواج انفعالية جديدة، تناسب الوحدة المتجددة، لتحدث ضرباً من التلوين التعبيري، تتوزعه تضاعيف التركيب كأمواج الكهرباء، ويتوضع فيما حول العنصر أو اللفظ من المفردات، معبراً عن الوظائف والعلاقات المستجدة التي دخل لها التغيير في الكلام.

فلو راقبت التشكيلات التعبيرية في نحو:

الطفلُ نائمٌ، أظنُّ الطفلَ نائمًا، كان الطفلُ نائمًا، إنَّ الطفلَ نائمٌ، كأنما  
الطفلُ نائمٌ، ليت الطفلُ بقي نائمًا...

لاتضحك وتشرّب، لاتضحك وتشرّب، لاتضحك وتشرّب، لاتضحك وتشرّب،  
لاتضحك وتشرّب، لاتضحك وتشرّب، لن تضحك وتشرّب...

لوراقبت هذه التشكيلات وما يتولد عنها، من صور تركيبية أخرى معقدة،  
لتبدّت لك ألوان من التأثير في الاسمين والفعلين، لاتغيب معالمها وصورها  
ودلالاتها عن دارس أو باحث. وقد يكون هذا التأثير أبعد مدى في المكان  
والزمان، كالذي تراه في الاستدارة التشبيهية التي تشغل عدة أبيات من  
الشعر، أو في التعبير بـ «رُبَّ» وما يستفرقه أحياناً من شعر أو نثر.

وفي مقابل هذا اللون التعبيري، لاحظ النحاة أيضاً أن تغيراً ما في  
لفظ من التركيب يصاحبه تبدل في الدلالات المعنوية من جهة، وتأثير في  
الوظائف والعلاقات بين المفردات والجمل من جهة ثانية، وحضور  
عناصر جديدة لم يكن لها وجود من قبل. فقولك «العُصفورُ داخلُ القفصِ  
الآن» يعني أنه يقوم بعملية الدخول إليه، ولَمَّا يَصِرْ فيه. أما قولنا  
«العُصفورُ داخلُ القفصِ الآن» فإنه يعني أنه قد دخله من قبل، وهو حبيس  
فيه الآن. ومن هذا ترى أن التركيب الجديد يحمل معنى الوجود في الداخل،  
وهو ذر وظيفة دلالية لعنصر طارئ، لم يكن له حظ في الجملة الأولى.

ولتحقيق حضور هذه الوظيفة الطارئة، وهذا العنصر الدخيل وتلمس  
وجوده، ترى أنك تستطيع استبدال العُصفورة بالعُصفور في الجملة  
الثانية، فتقول «العُصفورةُ داخلُ القفصِ الآن»، ويتعذر عليك مثل هذا

في الجملة الأولى، إذا لم تُلحقِ التاء بالخبر قائلاً: العُصفورةُ داخلةُ القفصِ الآن. والسر في الاختلاف والتعذر أن لفظ «داخل» في هذه الجملة هو فعل العُصفورة نفسها، على حين أنه في الجملة الثانية هو ظرف لاصلة له بما عمله هي، وإنما يحدد مكان ذلك العمل ويحيط به في الوجود.

وعلى ذلك نستطيع أن نفهم معنيين مختلفين، لقول الشاعر:

أحيئك، يا ظلُّوم، وأنتِ مِنِّي

مَكَانَ الرُّوحِ، مِنْ جَسَدِ الْجَبَانِ

إذا روي برفع «مكان» ونصبه. فالرفع يدل على أن المخاطبة هي المكان الذي تسكنه روح الجبان، في حين أن النصب يعني كونها هي في مكان تلك الروح، تحل محلها وتقوم مقامها من جسمه.

وفي ضوء هذا البيان، فإن آخر بيت الشاعر الثُميري<sup>(١)</sup>:

فأوقدتُ ناري، ثمَّ انقَبْتُ ضَوْءَهَا

وأخرجتُ كلبي، وهَوَّ في البيتِ داخِلُهُ

تراه، إذا تجاهلت ما قبله في العجز، يحتمل أن يكون الدخول حاصلًا فيما مضى، أو أنه جارٍ حينذاك. ولكن إذا راعيت قوله «في البيت»،

(١) شرح حمزة أبي تمام للأعلم ص ٩٨٧ وشرح أبيات المغني ٤: ١٦٠-١٦١. وانقبت

ضرمها أي: أتره حتى سطع ولاح. وإنما أخرج كلبه ليتبع ليستدل الضيف بتابعه.

وأضفت إليه ملاحظة «أخرجت كلي»، تعيّن المعنى الأول، وأصبح الثاني قصيًّا مردوداً. ولو استخدمنا مصطلحات التحريين والبلاغيين لقلنا: إنّ «داخل» خبر ثانٍ للضمير «هو»، والخبر الأول هو متعلّق الجار والمجرور «في البيت»، تلاه الثاني لإفادة التوكيد. وقد يكون «داخل» بدلاً من الخبر المحذوف، جيء به للبيان والتحقيق.

وهذا خلاف ما ذهب إليه بعض العلماء القدماء. فابن جني (ت ٣٩٢) يرى أن «داخل» بدل من الظرف «في البيت»، حتى كأن الشاعر قال: وهو داخل البيت. إذ ليس يحسن أن يكون الظرف لغوًّا، أي: متعلقاً بـ«داخل»، الذي تعدى في المعنى إلى الظرف نفسه، لأن الهاء المضاف إليها هي ضمير البيت، وهي في المعنى ظرف. ألا ترى أن أصل المعنى: داخلٌ فيه؟ ولا يجوز أن يعمل عامل واحد في ظرفين، من جنس واحد<sup>(١)</sup>. وقد تابع المرزوقي (ت ٤٢١) ابن جني، في هذا، إذ أجاز أن يكون الظرف «في البيت»: خبراً للمبتدأ «لأغوّ»، و«داخل»: في موضع البدل من «في البيت» أيضاً. وكذلك قال التبريزي (ت ٥٠٢)<sup>(٢)</sup>.

ولو صح ما ذكره لكانت الرواية «داخلت»، لأن محلّ الجار والمجرور هو النصب، كما هو رأي جمهور النحاة، والبدل يجب أن يكون تابعاً لما أبدل منه، في الوظيفة والإعراب. فإن قيل: لعلمهم يريدون بالظرف ما يتعلّق به، وهو الخبر المحذوف: «كائن»، فتسمحوا في التعبير جرياً على عادة النحويين، أرمرأدهم أن الشاعر قصده نصب لام «داخل»، ورفعها

(١) الورقة ٢١٣ من إعراب شرح الحماسة في النسخة الخطية بدار الكتب المصرية.

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ص ١٦٩٧-١٦٩٨ وللتبريزي ٤: ٢٢٧-٢٢٨.

تهربُ من الإصراف<sup>(١)</sup> في القافية، لأن حركة اللام في المقطوعة هي الرفع، قلنا: يدفع هذا وذاك ما فسر به المرزوقي والتبريزي توجيه الإعراب، إذ قالا: «ويكون كقولك: زيدٌ داخلُ البيتِ وخارجُهُ». فهذه العبارة نص على أن الدخول عملٌ يقوم به الكلب، وليس مما وقع وانتهى من قبل.

وقد تنبه جمهور النحاة قديماً إلى ما ذكرناه من تبادل، للتأثير بين المضمون والتعبير، وأوردوا نماذج غفيرة توضح ذلك. فإذا قلت مثلاً: «اذهب أنت وزيد»، كنت قد أمرت الاثنين بالذهاب، فكل منهما مأمور. أما إذا قلت: «اذهب أنت وزيداً»، فالأمر يكون للمخاطب وحده مرافقاً زيداً، ولا يلزمه الذهاب حين يتخلف زيد. وإنما تلزمه متابعة زيد له فقط<sup>(٢)</sup>.

وإذا قلت: «كيف أنت؟» كان الاستفهام عن الشأن ولدينا خير ومبتدأ. فإن أضفت إلى الجملة «وزيداً» صار الاستفهام عن عمل أو صنع، وما لدينا فيه فعل محذوف، هو: تصنع أو تكون. وكذلك الحال في التقديم والتأخير أيضاً. فقولنا: ما كان أحسنَ جوابك! وما أحسنَ ما كان جوابك! ترى فيه الاختلاف في الدلالة، وفي وظيفة «كان» وبعض ما حولها من العناصر التركيبية<sup>(٣)</sup>.

(١) الإصراف: اختلاف حركة الروي في مقطوعة واحدة، بأن يكون مع المرفوع أو المجرور منصوب. الوائي في العروض والقوافي ص ٢١٥.

(٢) اللباب في حلل البناء والإعراب ١: ٢٨١. وانظر منه ص ٢٩٩ و ٣١٢ و ٤٠-٤٥ و ٦٢-٦٣.

(٣) انظر منفي اللبيب ص ٧٥٠.

ومن ثم توقفوا مَلِيًّا عند مثل: «ما أبعد العيب»، ليستعرضوا المعاني المختلفة، إذا قُتحت الدال أو رُفعت، ونُصب العيب أو رُفع أو جُرّ، ليكون تعجب أو نفي أو استفهام، في سياقات متعددة. ومن هذا المنطلق، شرعوا يتابعون انفعالات المفردات والتراكيب، ويرصدون مساراتها ومنعطفاتها، ويسجلون الخطوط البيانية الضابطة، ليكتشفوا أسرار التعبير والحقائق التي تفسره، ويتبينوا توجهاته وألوانه المختلفة.

فقد تحقق لديهم أن ثمة واقعاً نحوياً، يتبدى في التركيب، ويغيب إذا تمايزت المفردات، وتفلتت من روابط التعبير. ثم رأوا أن هذا الواقع حدثٌ حَاضِرٌ، لاشك فيه، يلازم الكلام العربي الصحيح، ويتلون بمقاصده وصيغته. وما كان من المتأخرين إلا أن نسبوه إلى النحو، وأسموه بالعمل النحوي.

## العمل الإعرابي

إن نسبة هذه الظاهرة اللغوية إلى النحو تقتضي النظر والتحقيق. فالمشهور أن النحو هو من الزاوية النظرية: «علم مستخرج، بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائها التي ائتلف منها»<sup>(١)</sup>. وهو من الناحية العملية: انتحاء سميت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير<sup>(٢)</sup>....

(١) القرب لابن عصفور ص ٤٥ .

(٢) الخصائص ١: ٣٤ . وانظر الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢: ٦٩٣ وللإمامي ١:

٩ والمستغنى ٢: ٣٥٢ وظاهرة الإعراب ص ٢٠-٢٢ وظاهرة الإعراب في العربية ص

وإذا حللنا هذين المعنيين لفهوم النحو تبين لنا أنه يضم أحكام صيغ المفردات متميزة، وأحكام تركيبها في كلام، أي: ما يُعرف بالعلمين: الإعراب والصرف، خلافاً لما عليه بعض المتأخرين والمعاصرين. هذا في حين أن العمل الذي نحن أمامه إنما يتبدى في التركيب، لا في صوغ المفردات، أي: في الإعراب دون الصرف. ولذا ترانا نصيب كبد الحقيقة، إذا نسبناه إلى الإعراب وحده، ونفيها عنه نسبته إلى النحو كله، لنزيل ما قد يعتري الأذهان، من تدخله في بنى الكلمات مفردة قبل التركيب. إنه إذا عمل إعرابياً.

ثم يظهر لهذا العمل نوعان<sup>(١)</sup>: لفظي ومعنوي. وكثيراً ما يجتمع العملان معاً للعنصر الواحد، كحروف الجر والنصب والجزم. فنقولك: «ذهبت إلى السوق» ترى فيه أن «إلى» قد أحدث في «السوق» صفة الجر، وجعل الذهاب ينتهي بالسوق أيضاً. وكذلك ترى «لم» في مثل: «لم أذهب» قد أفاد نفي المعنى وجزم الفعل. وقس على هذا ما يكون في النصب وغيره.

وقد يكون العمل قاصراً على المعنى وحده، إذ لا يبدو له أثر في اللفظ. وذلك واضح في حرقي الاستفهام مثلاً، حين تقول: أحضر الطلاب؟ هل نجح المشروع؟ فقد نقل كل من الحمزة و«هل» معنى الجملة من الخبر إلى الاستفهام، من دون أن يكون لأحدهما عمل لفظي ظاهر أو مقدر أو

(١) المتعدد ص ٨٨-٩١. وفي أنواع أخرى بعيدة عما نراه. وانظر ص ٢٦٨-٢٧٠ من الخليل



مَنُوي. وكذلك حروف التحضيض والتحقيق والتنبيه، والتأنيث والجواب والتسويق والتعريف والاستفتاح، والشرط الامتناعي.

وقلّ أن يكون العمل مقصوراً على اللفظ وحده. فربما كان للحرف الزائد مثل هذا. وذلك عندما يكون مقحماً في العبارة لغير قصد معنوي، وهو نادر في الكلام. أما «مين» في مثل قولك: «ما غاب عني من جواب» فهي، على رغم زيادتها في الإعراب، تفيد التنصيص على استغراق الجنس، حتى إنه لا يجوز أن تضيف إلى العبارة نفسها نحو: «بل اثنان» مثلاً. وهذا يعني أن «مين» عملت في المعنى أيضاً، فكان لها عمل مزدوج.

ولكي يكون بحثنا مبنياً على وضوح ودقة، يجدر بنا أن نبسط الدلالة العلمية للإعراب المزدوج المتسرب إلى تضاعيفه العمل، سارياً في أوصاله ومتحكماً في مسيرته. وهنا نجد أنفسنا إزاء مادة لغوية ثرة، كان لها في التاريخ أبعاد مختلفة. فقد طاب للنحاة، والباحثين والدارسين والمؤرخين للنحو، أن يتباروا في حشد الدلالات اللغوية للإعراب، فكان أن ذكر بعضهم منها خمساً، وأضاف بعض آخر على ذلك عدداً من الدلالات، ثم استدرك آخرون على الجميع أعداداً أكثر، فإذا هي بضعة عشر معنى بين حقيقي ومجازي، أحدها من غير لغة العرب<sup>(١)</sup>.

وقد حاول ابن فارس (ت ٣٩٥) أن يرد تلك المعاني الوافرة إلى أصول، تجمع شتاتها وتوحد ما بينها، فرأى أن تكون معاني ثلاثة: أحدها: الإبانة<sup>(٢)</sup> والإفصاح، والآخر: النشاط وطيب النفس،

(١) الفهرست ص ٨ والتصريح على التوضيح مع حاشية الشيخ بس ١ : ٥٩ وحاشية المبان على شرح الأشموني ١ : ٤٧ والمجمع ١ : ١٣-١٤ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤ : ٢٩٩ . ربي المطبوعة: الإبانة.

والثالث: فسادٌ في جسم أو عضو. ثم بسط الدلالات الوضعية لتلك المعاني الثلاثة، وما يرتد إليها من دلالات مجازية.

ومن هذا، يبدو أنهم جميعاً غفلوا عن أصل محدد، هو بين أيديهم، يتداولونه فيما يسردون من المعاني المعروفة قديماً. وذلك هو التحسين والإجادة. فقد ذكروا في معرض أمجائهم أنك تقول: أعربتُ الشيء، إذا حسنته وأجّدته. وكلنا يعلم أن همزة «أعرب» مزيدة على الأصل. فإذا أضفنا إلى هذا أن المعنى الوضعي لقولنا «عربَ الإنسان» هو: أفصح بعد لكثرة، تبين لنا أن زيادة الهمزة مراد بها المبالغة في توكيد الإفصاح بعد عجز عن البيان. وذلك على غرار نحو: وفي وأوفى، وطاق وأطاق، وحرق وأحرق، وشعل وأشعل.

ومن ثم تكون الإجادة للتعبير، مع تحسينه في «أعرب»، مصحوبة بالمبالغة والتوكيد أيضاً. فإذا قلت: «أعرب الرجل» عني أنه أفصح القول وجوّده وحسّته، فكان هو عربانيّ اللسان وقوله عربانيّ التعبير. وهذه النسبة أيضاً تفيد المبالغة، كما هو معلوم. وإنما سُمي أجدادنا القدماء عرباً لأنهم اتقنوا التعبير الفصيح المبين، وجوّدوا صياغته وأداءه على أحسن ما يكون، وتداولوا بعقولهم وأقواهم أعرب الألسنة وأجود البيان. وقد تنمى ذلك وتغذى فصاحة وبياناً بين العدنانيين ومن عاش بينهم، بخلاف أشقائهم الذين توزعوا في العراق والشام وشمال إفريقيا وشرقيها وجنوبي الجزيرة.

وحياة أجدادنا هؤلاء ضاربة في العصور الغابرة، تتجاوز ذاكرة التاريخ المعروف. فهم أقدم الأمم التي عُرفت بعد نوح، وبقي ذكرها

حتى الآن، لأنهم يشكلون الجيل الرابع من ذرية ابنه سام. وهذه آثار العرب العاربة، في الألفين الخامسة والرابعة قبل الميلاد، على ما يعرف من تواريخ بين المصادر، تشهد لهم بالقدم في تكوين الحضارة. ثم إن أقدم ما عُرف في التاريخ، عن الأجيال التالية غير العربية، كان في مطلع الألف الثالثة. وقبل ذلك بقرون وقرون أسست القبائل العربية المتفرقة ممالك بأطراف الجزيرة العربية وبلاد العراق الشام وشرقي إفريقيا وشمالها، ولاسيما دولة اليمن، والسيادة على مصر قبل الفراعنة وفي عصرهم. وقد ترتب على ذلك حضارات عربية، كان فيها الخط العربي المسماي أداة للتسجيل اللغوي<sup>(١)</sup>.

وإذا صحَّ ما يذكره الباحثون، من تشابه بين الخطوط القديمة: عربية عدنانية ومصرية وآرامية وسريانية ويونانية، كان الأصل في ذلك هو الخط العربي المذكور، تأثرت به الخطوط الأخرى وما اشتقَّ منها، على عكس ما زعمه بعض المستشرقين ومقلديهم. فقد انتقلت آثار الخط المسماي، والخط الشمودي المشهور، من العرب العاربة إلى ربيع مصر مع الحكم العربي القديم، وإلى الحضارة اليمنية الجُمَيْرِيَّة، وتألفت نماذجها العربية مع الزمن، حتى أصبح الخط في المملكة القحطانية «بالنأ مبلغه من الإحكام والإنقان والجودة»، كما يقول ابن خلدون. ثم رحلت أجياله الأخيرة بعد سيل العرم، مع هجرة اليمنية إلى الحيرة، تغذي وتنمي ما زرعه العرب المهاجرون قبل من خطوط بدائية. ومن هذا المزيج الحضاري

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٣٣-٣٤٣. وتخصص الأنبياء للتجار ص ٥١ وتعليق الألفاظ ص

انتقلت الصور الخطية إلى مكة والطائف، ليكون للكتابة العربية شكلها المعروف، وتتخذ جالياتها المختلفة بانتشار الإسلام<sup>(١)</sup>.

أما لفظ «العرب» فلطالما وقف علماء اللغة والتاريخ عنده، واختلفوا في سبب إطلاقه على هذه الأمة الكريمة، فكانت لهم توجيهات مبنية على الظن والتخمين، أو على مقولات إسرائيلية موضوعة، ليس لها أدلة علمية أو موضوعية ثابتة<sup>(٢)</sup>. والظاهر أن لفظ «عَرَبٌ» هو مصدر للفعل: عَرَبَ يَعَرِبُ، نُقِلَ إلى معنى الصفة المشبهة للمبالغة، وسُمِّيَ به جنس أجدادنا توكيداً لهذه المبالغة، فصار الصرحاء منهم هم العرب العاربة أو العَرَبَاء. ثم تفتقت بعدُ الميادينُ المجازية، في هذه المادة اللغوية الولود الودود المُنْجِبة، فكان عنها ما ذكر من: النشاط والصفاء والتعجب والغزل، وطيب النفس والتشذيب والرد عن القبيح، والإقامة في البادية. ثم صدر عن ذلك توسع ضديّ، على غرار ما عُرف في العربية من تضاد الدلالة لبعض المفردات، فصارت مادة «عرب» تدل على مثل: التفتيح والورم والفساد والتخمة، والتقبيح والإفحاش والفجور...

أما «العَرُوبَةُ»، الذي كان يطلق على يوم الجمعة في قديم الزمان، فقد أشكلت على ابن فارس<sup>(٣)</sup> معرفة أصله المعنوي، وانتهى إلى أنه شاذ،

(١) النهرست ص ٧-٨ والصاحبي ص ٣٦ ومقدمة ابن خلدون ص ٧٥٥-٧٥٧ وفقه اللغات السامية ص ٢٣-٣٦ وتاريخ اللغات السامية ص ١٩٦-١٩٩ وفقه اللغة وتاريخ الكتابة ص ٢٢٦-٢٣٦ ومصور الخط العربي ص ٢ و٢٩٦-٣٠١ والخط العربي جذوره وتطوره ص ١٤ و٢٨ والمخطوط العربي ص ٤٧-٤٨ والكتابات القديمة ص ٢٢٤-٢٢٥ والأبجدية ص ٣٤-٣٩ ومدخل إلى فقه اللغة العربية ٤٥-٥٠ ونشأة الخط العربي وتطوره.

(٢) انظر اللسان والتاج (عرب) وتاريخ العرب قبل الإسلام ١: ١٤-٢٠.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤: ٣٠١.

يتعذر رده إلى الأصول الوضعية والمجازية لمعاني مادة «عرب». وفي عهد ابن فارس أيضاً، كان ابن جني قد ذهب إلى أن العروبة من البيان والظهور، إذ يوم الجمعة أظهرُ أمراً من بقية أيام الأسبوع، لما فيه من التأهب لها، والتوجه إليها، وقوة الإشعار بها<sup>(١)</sup>.

والظاهر أن الأصل في هذه التسمية ليوم الجمعة هو «العروب»، ومثله «العريب»، صفة نفيد المبالغة للمرأة الضحاكة الحسناء المتحبة إلى زوجها، أُضيفت إلى آخره التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية تأكيداً للمبالغة أيضاً، ثم أطلق بلفظه الجديد على هذا اليوم المبارك، لما فيه من الخير العميم. فقد كان يوم الجمعة، وما زال أفضل الأيام وأحبها إلى الله -تعالى- وعباده المؤمنين. قال النبي ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، يَوْمُ الْجُمُعَةِ»<sup>(٢)</sup>. ولقد وضح ذلك بقوله أيضاً: «إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ، وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَى وَيَوْمِ الْفِطْرِ»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك قُرِضَ في قديم العصور، على بني إسرائيل، أن يعظموه وحده من بين أيام الأسبوع، بعد أن بين لهم موسى -عليه السلام- فضيلته وكرامته. ولكنهم خالفوه وزعموا أن السبت أفضل، وأصروا على اختيارهم هذا، فابتلاهم الله بالبطالة فيما اختاروا، وكان ماكان فيهم من

(١) الخصائص ١: ٢٧.

(٢) الحديث ٨٥٤ في صحيح مسلم. وانظر المسند ٢: ٢٧٢ و ٣٢٧ و ٤١٨.

(٣) الحديث ١٠٨٤ في سنن ابن ماجه. وانظر المسند ٣: ٤٣٠ و ٥: ٢٨٤.

المسخ واللغة الأبدية. وكذلك شأن النصارى إذ فضلوا يوم الأحد، وأنكروا توجيه المولى - سبحانه - وأنبيائه<sup>(١)</sup>.

هذا ما نذكره من الدلالات المعنوية لمادة «عرب». أما اصطلاح «الإعراب» فنص كثير من العلماء على أنه مصدر: أعربْتُ عن الشيء، إذا أرضحتْ عنه<sup>(٢)</sup>. وقيل: هو من قولهم: أعربْتُ، أي: أصلحتُ. والهمزة مزيدة للإزالة، إذ الأصل هو قول العرب: عَرَبَتِ المِعدَةُ، إذا قَسَدَتْ. والإعراب هو الإصلاح وإزالة الفساد<sup>(٣)</sup>.

وقد أضاف منصور بن فلاح (ت ٦٨٠) في كتابه «المعني» معاني ثلاثة، يُحتمل أن يكون الاصطلاح منها. أولها قريب مما مضى، وهو: أعربَ أي: أفسدَ. فالهمزة مزيدة للتعدية، والمراد أن الكلام كان فاسد الدلالة، فأُفْسِدَ بالإعراب ما فيه من الفساد وأُصلِحَ معناه. والثاني أنه منقول من المرأة العُروب، لأن المتكلم بالإعراب يتحجب إلى سامعه. والثالث أنه من: أعربَ الرجل، إذا تكلم بالعربية. والمعنى أن المتكلم بالإعراب مرافق للغة العرب<sup>(٤)</sup>.

ثم اختلف النحاة أيضاً في حقيقة الإعراب: اللفظي هو أم معنوي؟<sup>(٥)</sup> والأول مذهب الجمهور ونُسب إلى المحققين. وعلى هذا فالإعراب: أثر

(١) انظر نتج القدير ٣: ٢٨٧-٢٨٩.

(٢) الخصائص ١: ٣٦.

(٣) المقصد ص ٩٨ والارتشاف ١: ٤١٣. والنص مضطرب في المطبعة. وانظر البيطاني شرح الجمل ص ١٧١.

(٤) الأشياء والنظائر ١: ٧٦. وانظر المصطلح النحوي ص ١٤-١٥.

(٥) المسح ١: ١٤.

ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل. ولذا يقال: إن الإعراب هو الحركات والأحرف والحذوف المبيّنة عن معاني اللغة<sup>(١)</sup>. والثاني مذهب ابن السراج والفارسي والزغشري وابن معطي وجماعة من المغاربة والمتأخرين، والمراد به أن الإعراب معنوي والحركات دليل عليه. فهو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديرأ<sup>(٢)</sup>. وقد تفرع عن هذا الانشطار تعريفات كثيرة، يتعذر حصرها<sup>(٣)</sup>.

وتميّزت بعض الآراء، في هذه الزاوية، فكان منها أن الإعراب ليس أمراً لفظياً أو معنوياً، وإنما هو صفة ذاتية تلابس المفردات قبل التركيب. إنه تبيّو الكلمة لتغيّر آخرها باختلاف العوامل عليها<sup>(٤)</sup>. فالأسماء عامة

(١) انظر الإيضاح في علل النحو ص ٩١ .

(٢) شرح الأشموني للآلفية وحاشية الصبان عليه ١ : ٤٨-٤٩ .

(٣) انظر الموقفي ص ١٠٦ ومشكل القرآن ص ١٤ والموجز ص ٢٨ والأصول ١ : ٤٤ والإيضاح ص ٧٢ والجمل للزجاجي ص ٢ واللمع ص ٥٠ والراضح ص ٤ والتبصرة والتذكرة ١ : ٧٦ والإيضاح المضدي ص ١١ والصاحبي ص ٤٢ و١٦٦ ومقدمة الشنبري ص ٨ والتواعد والنوائد ص ٤٣ والمقتصد ص ٩٧-٩٩ والأمثوزج ص ٨٣ والمصباح في علم النحو ص ٤٤ والمرغل ص ٣٤ واللباب ١ : ٥٢-٥٣ والنيين ص ١٦٧-١٦٩ وشرح اللمع ص ٧ وشرح عمدة الحفاظ ص ١٠٧ والتسهيل ص ٧ وشرحه ١ : ٣٤ وشرح الكافية ١ : ١٨ والمقرب ص ١ : ٤٧ وأمالى ابن الحاجب ص ٥٢٠ والفصول الخمسون ص ١٥٤ والنكت الحسان ص ٣٤ وملحة الإعراب ص ٦ والجامع الصغير ص ١١ ولباب الإعراب ص ١٥٣-١٥٤ والتهديب الرسيط ص ٧٥ والإرشاد إلى علم الإعراب ص ٧٩ والمساعد ١ : ١٩ وأوضح المسالك ١ : ٥٩ وشرح شذور الذهب ص ٣٣ وشرح جمل الزجاجي ص ٩٢ وتعليق القرائد ١ : ١٢٣ والتصريح على التوضيح ١ : ٥٩-٦٠ وشرح الأشموني ١ : ١٩ والكلام المفيد ص ٤٤ وشرح الخلاصة ص ٩ وحدائق الدقائق ص ٤٨-٥٠ والكواكب الدرية ١ : ١٤ وتاريخ آداب اللغة العربية ١ : ٥١ ودراسات في الإعراب ص ١١-٢٠ .

(٤) الملخص في ضبط قواعد العربية ص ١٠٤ . ونسب هذا الرأي إلى الزغشري والجرجاني .

وبعض الأفعال تحمل في بنيتها اللغوية استعداداً بالقوة، للتأثر بما يصاحبها من عوامل تركيبية، دلالة على الوظائف والعلاقات المختلفة في التعبير. ثم يكون في التعبير نشاط وتفاعل، يولد في الأداء فعلاً ما كان كامناً. وهذا يعني أن الإعراب أمر وضعي، يرافق البنى والصيغ، ويكون عنه ما يبدو أو يقدر من أصوات وعلامات.

وقد نُسب المذهب اللفظي إلى سيويه<sup>(١)</sup>، لأنه قال: «فالرفع والجر والنصب والجزم لحروف الإعراب»<sup>(٢)</sup>. وأنت إذا تأملت قوله هذا لم تجد فيه ما يوجّه أو يشير إلى معنى اصطلاحى للإعراب، وإن كان أقرب إلى الدلالة على المذهب المعنوي، بذكره العمليات الإعرابية دون النص على الحركات وما يشبهها. فالرفع عملية تلبس حرف الإعراب، لاحتراكه هي الضمة. وكذلك ما ذكره من الجر والنصب والجزم.

والراجع أن ما تداوله النحاة، من خلاف في طبيعة الإعراب، هو توجّه بعيد عن الواقع اللغوي، ومنصرف إلى بعض ظواهره، دون تتبع لحقائق التعبير. ذلك لأن الإعراب، في حقيقته، صفة ذاتية وضعية كامنة تختص بعض المفردات، ثم تكون في التركيب ذات وجهين متلازمين، كالورقة الواحدة، لا ينفصل أحد وجهيهما عن الآخر، وإذا قطعتها ميّزاً فإِذَا تَمَزَّقَ الوجهين معاً.

(١) انظر الارتشاف ١: ٤١٣ ودراسات في الفعل ص ٨ ودراسات في الإعراب ص ١١. ونسب إليه أيضاً أنه يطلق الإعراب على التعريب، أي: نقل الكلمات الأعجمية إلى لغة العرب. دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٥٤٤-٥٤٥.

(٢) الكتاب ١: ٣.



وكذلك وظيفة الإعراب في التركيب اللغوي، إنه تعبير عن الخاصية الكامنة، بعنصر لفظي ومعنوي في آن واحد، إذ هو صور صوتيه مُعيّنة لمعان تركيبية ومواقع نحوية مخصوصة، تبيّات لها المفردات المعدّة لذلك بالقوة. وقد أبدع ابن جنّي وكاد يصيب المَفْصِل، حين عرّف الإعراب بأنه: الإبانة عن المعاني بالألفاظ<sup>(١)</sup>. وكان ابن السراج قبل (ت) ٣١٦) حام حول هذا المَحْزَر أيضاً، عندما ذكر صوراً مختلفة من التلوين الإعرابي، ثم علق عليها بأن النحاة ميّزوا هذا الصنف من التغيير، الذي يقع لفروق ومعان تُحدث، وسمّوه إعراباً<sup>(٢)</sup>.

على أن هذا لا يحيط بما تضمنته المصادر التراثية، من شذرات تتضمن دلالات مختلفة، لمفهوم الإعراب. فالدارس يجد نفسه إزاء مصطلح، تجاذبه دلالات نحوية متعددة ومتباينة، يمكننا حصرها فيما يلي:

### ١- الإعراب التعبيري

وهو التعبير عن الوظائف التركيبية والمعاني النحوية، والعلاقات والدلالات لعناصر الكلام، بالتسّيق والنمط والصوت صياغة وأداء، أو بالصوت وحده قراءة. وهذا - كما ترى - يقوم به المتكلم أو القارئ، وهو أقدم معنى للإعراب في تاريخ الاصطلاح، حتى لقد تُسبب إلى يعرب بن قحطان أنه قال<sup>(٣)</sup>:

وَلَفْظُكَ أَعْرَبُهُ، بِأَحْسَنِ مَنَظَرٍ  
فَإِنَّكَ مَرهُونٌ، بِمَا أَنْتَ لَا يَفْظُ

(١) الخصائص ١ : ٣٥ .

(٢) الأصول ١ : ٤٤ .

(٣) الإكليل ٨ : ١٧٧ . وانظر دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٥٤٤ .

كما نُسب إلى النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرَأَ الْقُرْآنَ بإِعْرَابٍ فَلَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ»<sup>(١)</sup>، وإلى أبي بكر الصِّدِّيق: «لأنَّ أُعْرِبَ آيَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْفَظَ آيَةً»<sup>(٢)</sup>، وإلى الفاروق عمر بن الخطاب: «تعلّموا إعراب القرآن كما تتعلّمون حِفْظَهُ»<sup>(٣)</sup>، وإلى كثير من الصحابة والتابعين شيء من مثل هذا.

وقد كانت القبائل العربية، على الرغم من الخلافات اللهجية المعروفة، تنقيد بهذا الإعراب في كلامها، ولا سيما إذا كان المقال شعراً أو خطابة أو كهانة، أو مناظرات ومفاخرات في المجالس العامة. فالكلام بين الأفراد والجماعات رهين بعروبة البيان والإعراب، صياغة وتركيباً ولفظاً، مع فصاحة في الأداء والتعبير. وما يدعيه بعض الباحثين مستشرقين ومستغربين، من تميز للكلام اليومي قديماً يُعَدُّ عن الفصاحة هذه لدى العدنانيين ومن خالطهم، فإنما يوردونه اقتراضاً ذهنيّاً مسلمين به على غير بيان، أو استنباطاً من عبارات للنحاة أو الأعراب بدون اعتماد دليل علمي قاطع، أو اتهاماً لبعض اللهجات بالفساد.<sup>(٤)</sup>

(١) كثر العمال ١: ٤٥٧ وآداب المعلمين ص ٤٠ وبهجة النفوس وتخلبها ٤: ٧٤ .

(٢) إيضاح الرقف والابتداء ص ٢٣ . وانظر مراتب النحريين ص ٢٣ وتبني الأبواب على فضائل الإعراب ص ٨٩ و ١١٢ ومعجم الأدياء ١: ٨٩ والمزهر ٢: ٣٩٧ .

(٣) إيضاح الرقف والابتداء ص ٣٤-٣٥ وإعراب القرآن للنحاس ١: ١٦٦ وطبقات النحريين ص ٤ و ١٣ وكتاب الزينة ١: ١١٧ والأعداد ص ٢٣٩ والبيان والتبيين ٢: ٢١٩ وأمثال الغالي ١: ٥ وتبني الأبواب ص ٨٠ والنهاية في غريب الحديث والأثر واللسان والناج (لحن).

(٤) محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها ص ٥٦-٥٦ وتاريخ الدعوة إلى العامة وآثاؤها في مصر ص ٣-٤ والإعراب ص ١٢-١٦ والظاهرة الطارئة على النصحي ص ٢٤-٢٥ .

وحسبك أن تستقري كل ما روي عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين الكرام ومعاصريهم العرب العدنانيين ومخالطيهم، من كلام في مختلف المواقف الحوية، خطاباً أو حواراً أو وعظاً أو خصاماً أو وفاتاً أو توجيهاً أو نقداً أو إنكاراً. فإنك واجد فيه صبغة العروبة الخالصة دائمة، حتى إذا طرق سمعهم خروج على ذلك، في كلمة أو عبارة، أنكروه ورددوا صاحبه إلى الصواب.

ثم لاتنس أن هذا الصفاء البياني المذكور غالباً ما صدر في المدن والخواضر، وفي ظل الإسلام بعد تكاثر الأعاجم بين العرب، وحرى بما كان قبله وفي مناطق البادية والريف، أن يتسم بما هو أفصح وأوفى. ولذلك طلب رجال اللغة أبناء البادية، يلقون عنهم مادة سليمة معافاة، فلم يروا هناك إلا الأداء الفصيح، أو الصحيح مع ألوان من اللهجات الموسومة ببعض الخصائص المتميزة نوعاً ما.

على أن الاختلاط الكثير الدائم، لبعض العرب في أطراف الجزيرة، بالأعاجم للتجارة وغيرها قبل الإسلام أو بعده، قد ترك أثراً ظاهرة من اللحن في التعبير الكلامي، عُرف بين العرب من بابليين وأكاديين وآشوريين وفينقيين، وسبثيين وعموريين ومؤابيين وكنعانيين وسينائيين وعمالقة، وسريان وأنباط وأقباط وأحباش وبربر... وقبائل من أصول قحطانية.

ولعل أهل حضرموت كانوا أكثر تعرضاً لذلك من بين هذه القبائل

الأخيرة، حتى صيغ من اسمهم مصدر منحوت هو الحَضْرمة<sup>(١)</sup>، للتعبير عن اللحن ومخالفة الأداء السليم. فقد صار هذا اللفظ يتضمن الدلالة على الثكنة الغربية الفاسدة، بخلاف ما يذكر عن مختلف سائر القبائل العدنانية، من لهجات متميزة ضمن عروبة اللسان، بعيدة جداً عن الحَضْرمة.

ولعل أحمد بن فارس أيضاً كان يعني الإعراب التعبيري، حين ذكر أن العرب<sup>(٢)</sup> قبل الإسلام بقرون كانوا يعرفون الرفع والنصب والجر، ويتداولون الإعراب، ثم ضعف ذلك، حتى إذا جاء الإسلام جده أبو الأسود الدؤلي. لعله أراد هذا، وإن لم يفصح عنه بجلاء، وختلط في عرضه وبيانه. فربما أراد بالإعراب معناه اللغوي، أي: الإبانة<sup>(٣)</sup>. يعني الإبانة عن المعاني بالألفاظ، على غرار أساليب العرب.

ولهذا فإنه إذا كان في الكلام بيان للمعنى المقصود، مع بعض الخلاف للإعراب بنقص أو إقحام لا يخل بالتركيب، تقبله قدماء النحاة واستساغوا نقله. وقد عبّر سيبويه (ت ١٨٠) عن هذا بقوله: «فإن النحويين يتهاونون بالخلف، إذا عرفوا الإعراب»<sup>(٤)</sup>. ذلك لأن العرب

(١) نهذب اللغة ٢: ٣٦١-٣٦٢ واللسان والتاج (حضر). ولما قيل: إن اللغة اليخنة فيها أشياء منكورة، ولسان أهل مهرة مستعجم لا يكاد يفهم. وقال أبو عمرو بن العلاء: مالهان جيمٌّ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا. الانتصاب ص ١٩٨ والمصباح المنير (مهر) وطبقات فحول الشعراء ص ١١ والخصائص ١: ٣٨٦.

(٢) الصحاحي ص ١١-١٢. وانظر ص ١٠ من المحكم في نطق المصاحف و ١: ١٤٤ من منتهج السعادة و ص ١٠٩ من دروس في تاريخ آداب اللغة العربية لعروف الرصافي.

(٣) شرح الحدود في النحوص ١٥٨.

(٤) الكتاب ١: ٢٥٧. وانظر ص ٩ من الإعراب سمة العربية النصص.

كثيراً ما يجورون على الألفاظ لصحة المعنى. فقد روي أنهم يختلسون بعض الأصوات، بالخطف والمُشامّة والرفرفة والحذف، سواء أكان الصوت من الإعراب أم من البناء. وقد ورد كثير من هذا، في القراءات القرآنية وبعض النصوص من الشعر والنثر<sup>(١)</sup>.

## ٢- إعراب التركيب

وهو علم الإعراب، وقد يطلق مجازاً على علم النحو<sup>(٢)</sup>. أعني: «الأصول التي تُعرف بها أحوال تركيب كلام العرب». ويقابله علم الصرف قسماً له في مجموع النحو. وعلم الإعراب هذا تراه منشوراً في كتب النحاة، لأنه قام على استقراء الكلام العربي عامة، وملاحظة سلوكه وخصائصه في الجمل والعبارات، واستخلاص القواعد والأحكام الضابطة لأدائه. وهذا ضم في طياته جميع مفردات اللغة، ولم يخص العربيات فحسب، رغم أن ظاهره الاهتمام بالإعراب. بل لقد شمل الجمل أيضاً بأنواعها ومواقعها، مع أنها بعيدة جداً عن علامات الإعراب الظاهرة والمقدرة، وعن دلالاتها الوظيفية.

(١) المغنّب ١ : ٢٥ و ١٠٩ و ١٢٢ و ٢٧٣ و ٢ : ٢٠٩ والكتاب ٢ : ٢٩٧ وكتاب السبعة ص ١٠٧ وعبث الوليد ص ١٤٩ . وانظر ص ٤٥ من مختصر ربيع الأبرار، نسخة خطية في المكتبة الظاهرية تحت الرقم ٢٣٦٣ .

(٢) الفصل في النحو، تحقيق بروخ، غريسيانيا ١٨٥٩، ص ٢-٤ وحاشية الصبان: ١ : ١٦ والتصريح ١ : ١٤ وحاشية الخضري ١ : ١١ وشرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية ١ : ٨-١٨، ومفتاح السعادة ص ١٤٤ . وانظر منه ص ١٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٥٤٢ : ٣ .

وأقدم ما عُرف من هذا العلم، خلافاً لما يزعمه المستشرقون وبعض المستغربين من العرب، هو قول الإمام علي<sup>(١)</sup>: «الكلام كله اسم وفعل وحرف. والاسم: ما أنبأ عن المُسمَّى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المُسمَّى. والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. والفاعل مرفوع وما سواء ملحق به، والمفعول منصوب وما سواء ملحق به، والمضاف إليه مجرور وما سواء ملحق به». كان هذا قد دُوّن في «صحيفة» أو «تعليقة» للإمام علي، ثم تلت جهود أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩)، في كتابه «المختصر»، وجهود تلاميذه ومَن خلقهم في الآثار الباقية حتى يومنا هذا<sup>(٢)</sup>.

والحق أن بذور تلك المقولات قد أنبتت فروعاً متكاثرة، ازدهرت في العقود الأخيرة من القرن الأول، وأثمرت جيئ متعدي التوجهات والآراء والأحكام، حتى ضاق بعض العلماء حيثث بما كان، وعَبَّر عما يمارسه النحويون المتخصصون من تجاوز الحاجات المهارة اللغوية. فهذا أحد رجال الحديث، أبو عروة القاسم بن مُخَيَّمِرَة الحمداني (ت ١٠٠) - وهو معلم يمارس مهنة التعليم للتلاميذ والطلاب في الكوفة - يقول في ذلك: «النحو أوله سُغْلٌ، وآخره بَغْيٌ»<sup>(٣)</sup>.

إنه يتحدث عن خبرة وتجربة، ويصف ما يعانيه هو وأمثاله من نقل التعقيدات التي أنجزها النحاة في تلك الآونة إلى الأجيال الناشئة، وتحمل

(١) أمالي الزجاجي ص ٢٢٨-٢٢٩ ومعجم الأدباء ١٤: ٤٨-٥٠ ونزهة الألباء ص ٤-٦ والأشباه والنظائر ١: ٧-٨ وشرح قواعد الإعراب ص ٦٣.

(٢) انظر ابن عصفور والتصريف ص ٤٠-٤٢.

(٣) تيبه الألباب ص ٦٦ وصبح الأعشى ١: ١٧١ وروضة الأعلام ص ٩.

تعتهم في التعقب والإلزام والازدراء، وتبجحهم بالغطرسة لِمَا مَنَحُوا  
أنفسهم من تسلط على ألسنة الناس. وقد فسر القلقشندي نهاية عبارة ابن  
مُخَيَّمِرَة، بأنها تفيد التعمق في الإعراب، والمبالغة فيه.

وقد أكد هذه الناحية، مع شيوخ التعلق بالأصول والخلافات،  
والتقعر في الأداء والتحكم، قول الشاعر يزيد بن الحكم الثقفي (ت  
١٠٥)، يصف مجالسهم وما فيها من خصومات ومشاحنات<sup>(١)</sup>:

إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى الْفَيْ، وَبَاءِ

وَتَاءِ، هَاجَ بَيْنَهُمْ جِدَالُ

هذا ما كان في القرن الأول. وأنت معي في أنه ذو دلالة تاريخية حقيقية  
ظاهرة، تغير كثيراً مما تعارفه المؤرخون المعاصرون لنا، وتفرض إعادة  
النظر في مقولاتهم المضطربة.

### ٣- إعراب البُنية

وهو دلالة الصيغة في بُنية المفردات، بما تحمله من غلط وحركات  
وسكون، على المعاني الصرفية التي تتضمنها. فقد ذهب بعض المتقدمين  
من النحاة إلى أن هذه الظواهر، وما يشبهها من ضوابط، هي إعراب  
أيضاً. فقولك «مضرب» مثلاً يختلف معناه بكسر الميم وضمها وفتحها،  
مع فتح الراء وكسرها أو تشديدها وفتح الضاد. وكذلك لفظ «همزة»،

(١) سر صناعة الإعراب ص ٧٨٢ والمتنصّب ١: ٣٧١ ر ٤: ٤٣ ومعاني القرآن وإعرابه ١: ٦١

ودرة الغوامص ص ١٠٦ وشرح الفصل ٦: ٢٩ والخزانة ١: ٥٣-٥٦. وروي أيضاً في  
القافية: يُتَالُ.

بضم الهاء مع فتح الميم وسكونها، أو فتح الهاء مع فتح الميم وسكونها أيضاً. وفي الأفعال يبدو هذا الاختلاف الدلالي كذلك. فنقولنا «علم» يكون لضبط العين واللام أو تشديدها أثر ظاهر في تغير المعنى، بين صيغ المعلوم والمجهول والتعجب والتعدي، وكون العلم للغريزة والسجية. ثم إن الفرق واضح بين «يَدُقُّ» بكسر الدال وضمها...

ولسوف ترى أن أبا الأسود الدؤلي، حين قام بإعراب القرآن الكريم ونقط المصاحف، ضبط بذلك حركات وأواخر المفردات وما أشكل من حركات بُنيتها أيضاً<sup>(١)</sup>، فكان أول من حقق معنى إعراب البنية كما بسطناه. ولما استبدل الخليل بن أحد الحركات بتنقيط أبي الأسود جعلها شاملة للبني وللأواخر أيضاً، فكان ذلك تأكيداً لما ذهبنا إليه. وهذا قلّ من تنبه إليه<sup>(٢)</sup>، من الدارسين المعاصرين، إذ توهموا أنه خاص بإعراب أواخر المفردات، مع أن دلالة واضحة في أذهان القدماء وألستهم، بدليل الروايات التي حملت أبا الأسود على إنجازها.

والنحاة مدركون لهذه الحقيقة العلمية، حاضرة في أذهانهم عندما يبحثون أو يقررون. هذا أستاذ الكوفة أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧) تراه يعرض للآية الكريمة<sup>(٣)</sup>: «وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»، فيعلق عليها بأن الذين قرؤوا «تَلَوْا» أرادوا «تَلَّوْا». فيهمزون الواو لانضمامها، ثم يتركون الهمز، فيتحول إعراب الهمزة إلى اللام،

(١) انظر دراسات في تاريخ الخط العربي ص ٦٥ و ٦٧ و ٧٢ .

(٢) ينظر أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ص ١٨٩-١٩٠ .

(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.



تسقط الهمزة<sup>(١)</sup>. لقد جعل حركة الهمزة إعراباً - كما ترى - وهي ليست مما يُسمَّى كذلك، ثم عبّر عنها بالاسم نفسه، مع أنها أصبحت على فاء الكلمة وكانت من قبل على عينها.

وقريب من هذا ما تجده في تعليقه على «مُعَوَّنة»، حيث يذكر أن العرب نقلوا إعراب الواو - وهو ضمة - إلى العين، وهي فاء الفعل<sup>(٢)</sup>. وأوضح منه، في الدلالة على ما ذهبنا إليه، قول أبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨): «وقال أهل الإعراب: الحِجَّة: السَّنة. والحِجَّة: الفَعْلَةُ من الحج»<sup>(٣)</sup>. فقد كان صريحاً أن اختلاف حركة الفاء هو من الإعراب. وكذلك ما أورده أبو منصور الأزهري (٣٧٠) عن الزجاج، وهو أن «مين» إعرابها الوقف، ولكنها تفتح لالتقاء الساكنين، وأما إعراب «عن الناس» فلا يجوز فيه إلا الكسر<sup>(٤)</sup>. ومثل هذا التعبير، وما مضى قبله، بعيد جداً عما يتداوله الناس بين المتأخرين والمعاصرين، من مفهوم الإعراب. إلا أنه - بلا شك - ذو دلالة معنوية أو صوتية أحياناً لا يُستهان بها.

ثم إنك واجد ما هو أبعد وأدق، في البيان عما نزعناه من إلحاح النحاة على إعراب البنية. أعني ما تقف عليه لدى أبي علي الفارسي (ت ٣٣٧)، من عنوان عقده<sup>(٥)</sup> لـ «الإعراب»، ثم عرض تحته ما استغرق تسع صفحات، في بحث الصيغة الصرفية للفعل «أَمَنَ». فهي تحتل في الظاهر

(١) معاني القرآن ١: ٢٩١. وانظر الحجة للقراء البجة ٣: ١٨٥-١٨٦.

(٢) تهذيب إصلاح النطق ص ٣٠٤.

(٣) شرح القصائد التسع ص ٣٠٣.

(٤) تهذيب اللغة ٣: ٣١٧.

(٥) الحجة للقراء البجة ١: ٢٢٥-٢٤٣. وانظر منه ص ٢٢٤-٢٢٩. والشعر والشعراء

ص ٤٥-٤٨ وكتب أعراب القرآن.

أن تكون على وزن: أفعلّ، أو فاعلّ. ولكل منهما دلالة معنوية خاصة بها، إذ هي في الأول بمعنى: صدّق وانقاد. هذا على حين أن المعنى للوزن الثاني هو: شارك غيره في الأمن.

وكي يحدد الصيغة الحقيقية، لهذا الفعل في الآية الكريمة المعنوية، لجأ إلى السبر والتقسيم، فوضع الافتراضات المحتملة، واستعان بضوابط الإعلال والإبدال، في نحو: آدم وآوى وآى وأجر، ثم استدل بالمضارع: يُؤمّن، مهموزاً أو مدرداً بالواو، وجواز الحمز وغيره في مثل: يؤس ومؤسّى واتّمن ورؤيا ومؤهب، وما يكون من صور مختلفة من الإعلال والإدغام والإظهار والإمالة.

ومن ثم انتهى، بعد تلك الجولات التصريفية المتطاولة، إلى أن الفعل «آمن» وزنه: أفعلّ، ليتضمن معنى التصديق والانقياد. وقد أكد حضور هذا المعنى الإعرابي في أذهان النحاة تلميذه ابن جني (ت ٣٩٢)، حين بحث موضوعات صرفية خالصة، للصيغ والبني والتحويلات الصوتية، في كتاب عنوانه «سر صناعة الإعراب».

#### ٤- الإعراب التحليلي

وهو تمييز العناصر اللفظية للعبارة، وتحديد وظائفها التركيبية ومعانيها النحوية وعلاقاتها الإعرابية، وذكر الأدلة على ذلك بالتسق والنمط والصوت، لفظاً أو تقديراً أو محلاً<sup>(١)</sup>. وهذا الضرب من الإعراب

(١) المورد النحوي الكبير ص ٨-١٢.

لا يقتصر أيضاً على مُعَرَّب الكلمات، بل يضم المَبْنِيات منها، ويتناول أشباه الجمل، ثم يستغرق الجمل والمصادر المؤولة، وهي مركبات تعبيرية ولا تحمل شيئاً من رموز الإعراب.

وقد ظهرت بوادر هذا الضرب من الإعراب في العقود الأولى من سني الهجرة، إذ تعرض كثير من الصحابة والتابعين لتحليل مواقع بعض العناصر اللفظية، وتحديد وظائفه ومعانيه وعلاقاته، مع بيان شيء من الأدلة الواقعية. وأقدم ما عثرنا عليه، في هذا الميدان، أن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢) كان له عدة مقولات محفوظة. ومنها ما ذكره في التعليق، على قول الله تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، من أن «الشهداء» معطوف على «الصادقون»، والكلام متصل. يعني أن ذلك من عطف المفردات<sup>(٢)</sup>.

ثم تقف على عبارات للإمام علي (ت ٤٠)، من هذا القبيل، كالذي جاء في تفسير هاتين الآيتين<sup>(٣)</sup>: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، إذ روي عنه أنه قال في معنى ذلك: كَلَّا سوف تعلمون في القبور، ثم كَلَّا سوف تعلمون في البعث. غايرَ بينهما بحسب التعلق، وتبقى «ثم» على بابها في الزمان<sup>(٤)</sup>. أما خبر الأئمة عبد الله بن عباس (ت ٦٨) فقد كثرت عنه مقولات الإعراب التحليلي، حتى يصعب على

(١) الآية ١٩ من سورة الحديد.

(٢) البحر المحيط ٨: ٢٢٣.

(٣) هما الآيتان ٣ و٤ من سورة النكاثر.

(٤) البحر ٨: ٥٠٨ والدر المصون ١١: ٩٧.

الباحث استيعابها . فهو عندما كان يفسر قول الله ، عز وجل<sup>(١)</sup> : ﴿قَالَ حَقُّ رَاحِئٌ أَقُولُ﴾ ، سأل أحد المسلمين : لِمَ رُفِعَ الأولُ ونُصِبَ الثاني؟ فقال : أي : هو الحقُّ وأقولُ الحقَّ<sup>(٢)</sup> .

وفي تفسير الآيتين الكريميتين<sup>(٣)</sup> : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ، تسمعه يقول : مفعول «تركنا» محذوف ، تقديره : ثناء حسنًا جميلًا في آخر الدهر<sup>(٤)</sup> . ويقف على قول الله سبحانه : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ - وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ - وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾<sup>(٥)</sup> ، مبيِّنًا سبب النصب للرجل بعد معطوف عليه مجرور ، بقوله : عاد الأمر إلى الغسل<sup>(٦)</sup> .

ثم تجد لأبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩) شذرات من التحليل الإعرابي ، تمثل الصور العملية وحدود بعضها في نصوص مختلفة ، وتقرب إلينا البوادر المتوالية ، وما يبني عليها من تطور وغناء . فقد روي عنه أنه قال : «من العرب من يقول : لولاي لكان كذا وكذا . وقال الشاعر<sup>(٧)</sup> :

رَكَمَ مَنَزِلَ لَوْلَايَ طَحَتْ ، كَمَا هَوَى

بَاجِرَائِهِ ، مِنْ قُلَّةِ النَّيِّ ، مُنْهَوِي !

(١) الآية ٨٤ من سورة ص .

(٢) شرح قواعد الإعراب ص ٦٣-٦٤ . وانظر معالي القرآن للفراء ١ : ١٥٥ و ٢ : ٤١٢ .

(٣) هما الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة الصافات .

(٤) البحر ٧ : ٣٦٤ .

(٥) الآية ٦ من سورة المائدة .

(٦) تفسير الطبري ١٠ : ٥٥ .

(٧) البيت لبزيد بن الحكم ، الأمازي ١ : ٦٨-٦٩ .

وكذلك: لولا أنتم ولولاكم. ابتداء وخبره محذوف<sup>(١)</sup>.

وروي أن معاوية أرسل إليه من يسأله عن ترده بالتعبير الشرطي، فيما قال من محبة للنبي ﷺ وأهل البيت<sup>(٢)</sup>:

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أَصِيبُهُ

وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ، إِنْ كَانَ غَيًّا

فقال له المرسل: أشككت. يا أبا الأسود في حبههم أرشد هو أم غي؟ فأجابه: قل له: ما كنت أحب ألا تعلم أنني متحقق متيقن في حبههم أنه رشد. فَإِنَّ اللَّهَ -عز وجل- قال<sup>(٣)</sup>: ﴿وَأَنَا أَوْ إِنَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. أفبئى الله -عز وجل- شك في ضلالتهم؟ ولكنه حققه بهذا عليهم.

وقد كان لأبي الأسود جهود تعليمية، في موضوعات مختلفة من النحو، حتى إن عمر بن الخطاب طلب، من أبي موسى الأشعري والي البصرة، أن يقوم أبو الأسود هذا بتعليم الأعاجم والموالي ما يوجه ألسنتهم إلى فصاحة العربية<sup>(٤)</sup>. وقد مارس تلك المهمة زمناً، ثم تصدر لتحليل النصوص القرآنية، لغة ودلالة وإعراباً. وحقق ذلك فيما اخترعه

(١) المعتمد القزويني ٢: ٤٨٥ .

(٢) نور القيس ص ٩-١٠ وأما المرتضى ١: ٢٩٣ وديوان أبي الأسود ص ٧٤-٧٥ وشرح العيون ص ١٦٠ .

(٣) الآية ٢٤ من سورة سبا.

(٤) إنباء الرواة ١: ١٦ .

من تنقيط الإعراب، حيث ضبط مفردات القرآن الكريم، بما يسر لفظها على الصواب، ويبين الصيغ والعلاقات والوظائف النحوية.

وهذا «حرّ بن عبد الرحمن النحوي القارئ، سمع أبا الأسود، وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة»<sup>(١)</sup>. ولو كان ذلك الطلب مقصوراً، على مجرد النقط المشهور، لما احتاج عالم نحوي قارئ إلى هذا الزمن لضبطه وتعلمه. فلا بد أنه كان مع تلك الإشارات دراسة وتحليل وحوار وبيان، لبعض الوظائف والمعاني والعلاقات، مع ذكر الأدلة المناسبة يومذاك.

ولقد شارك أصحاب ابن عباس وأبي الأسود، ومَن أخذ عنهم أيضاً، في توسعة هذا الميدان، فكان لهم تحليلات إعرابية غفيرة للنصوص. فابو مالك (ت ١٠٨) -وهو من تلاميذ ابن عباس- يحلل «لولا» من قول الله تعالى<sup>(٢)</sup>: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ»، فيذكر أن «لا» زائدة، والتقدير: لو نُزِّلَتْ<sup>(٣)</sup>. وهذا يعني أن «لو» للتمني، وزيادة «لا» للتوكيد والمبالغة في المعنى. وقتادة بن دعامة (ت ١١٧) -وهو من تلاميذ أبي الأسود- روي عنه، في الآية الكرّمة<sup>(٤)</sup>: «فَإِنَّمَا تُحَرَّمُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَيَهُونَ فِي الْأَرْضِ»، أن الظرف متعلق بـ «يتيهون»، فيكون التَّيُّه مؤقناً والتحريم مطلقاً<sup>(٥)</sup>.

(١) بغية الرعاة ١: ٤٩٣.

(٢) الآية ٢٠ من سورة عمه.

(٣) البحر ٨: ٨١.

(٤) الآية ٢٦ من سورة المائدة.

(٥) تفسير الألوسي ٦: ١٦١.

أما عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (٣٠-١١٧) فقد كان من أصحاب تلاميذ أبي الأسود، وكثر عنه التحدث في المشكلات الإعرابية، ولا سيما ما كان بينه وبين الشعراء. فهو يسأل الفرزدق عن إنشاد هذا البيت<sup>(١)</sup>:

وَعَيْنَانِ، قَالَ اللَّهُ: كُونَا، فَكَانَتَا

فَعُولَانِ، فِي الْأَلْبَابِ، مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

فقال الفرزدق: كذا أنشده، أي: «فَعُولَانِ». فقال ابن أبي إسحاق<sup>(٢)</sup>:  
ما كان عليك لو قلتَ: فَعُولَيْنِ؟

أجاب الفرزدق: «لو شئتُ أن أسبَحَ لسبَّحتُ»، أو «لو شئتُ أن تُسَبِّحَ لَسَبَّحتُ». وانصرف من المجلس، فلم يعرف أحدا ما أراد. قال ابن أبي إسحاق: لو قال «فَعُولَيْنِ» لآخبر أن الله خلقهما وأمرهما. ولكنه أراد: هما فعولان بالألْبَابِ ما تفعل الخمر. وهذا يعني أن الرفع بالخبرية لمبتدأ محذوف و«كان» فعل تام، والنصب بالخبرية لـ«كان» على أنه فعل ناقص.

والظاهر من هذا كله أن بعض مصطلحات الإعراب أصبحت متداولة، بين رجال العلم والمعرفة وفي أوساط اجتماعية مختلفة، في تلك الآونة، حتى رأيناها تطرح في مجالس البحث، ضمن عبارات السؤال والإجابة، ويتقبلها جمهور السامعين، على ما فيها من مفاهيم علمية خالصة.

(١) البيت للذي الرمة في ديوانه ص ٢١٣ .

(٢) مجالس العلماء ص ٨٥-٨٦ والخصائص ٣: ٣٠٢ .

ولقد ورد شيء من ذلك في مجالات بعيدة جداً عن ميدان النحاة، كالذي روي عن إبراهيم بن يزيد النخعي (ت ٩٦) - وهو من الحفاظ والقراء والفقهاء المجتهدين في الكوفة - أنه قال: «التكبير جزم، والتسليم جزم». يعني أنهما لا يُمدَّان ولا تُعرب أواخر حروفهما، ولكن تُسكَّن فيقال: الله أكبر، والسلام عليكم ورحمة الله<sup>(١)</sup>.

بل لقد أصبح للتحليل النحوي مجالس خاصة، في المؤسسات العلمية. فهذا ابن أبي إسحاق الحضرمي كان له في المسجد الجامع بالبصرة حلقة طلاب، إلى جانب حلقة محمد بن سيرين الفقيه المشهور (ت ١١٠)، الذي ينفذ النحويين ويذمهم. وكأنه حصل بينهما من الوقائع ما حمل ابن سيرين، على التصريح بالقول: «لقد بقض إلينا هؤلاء المسجد».

ثم بلغ ابن أبي إسحاق أنه يعيب عليه تفسير الشعر، ويقول: «ما علمه بإرادة الشاعر؟ فقال: «إن الفتوى في الشعر لا تُجَلَّ حراماً، ولا تُحرَّم حلالاً. وإنما نُفتي فيما استتر من معاني الشعر، وأشكل من غريبه وإعراجه، بفتوى سمعناها من غيرنا، أو اجتهدنا فيها آراءنا. فإن زللنا أو عثرنا فليس الزلل في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا، ولا العثرة فيها كالعثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء، وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطهور»<sup>(٢)</sup>.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٢٧٠ والفاق ١: ٢١٢ واللسان والناج (جزم).  
وانظر الجمل في البحر للخليل بن أحمد ص ٢٢٦.

(٢) إنباء الرواة ٢: ١٠٦-١٠٧.



ولما بلغ ذلك القول ابن سيرين أقصر عما كان عليه من الإفراط في الرضوء، وأصبح إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا يقول: «هات حتى أظنَّ لك». وصار ابن أبي إسحاق، بعد أن بلغته مقولة ابن سيرين، يقول: «أظنَّ الشاعر أراد كذا، واللغة توجب كذا». ولا شك أن ذكر الإعراب في هذه الحادثة يعني التحليل الذي نبسط بيانه الآن، وإن كان حيثنذ في صور بسيطة مختزلة، وعبارات هلامية فضفاضة غير موحدة.

ويفسر هذا الجانب ماورد، بعد في المصادر التراثية، عن تحليل النصوص القرآنية وغيرها، تحليلاً فيه لمسات من الإعراب الذي نحن بصدده. فقد ووى الهيثم بن عدي أن زهيراً الفرقي (ت ١٥٠) -وهو نحوي كوفي أخذ عن تلاميذ أبي الأسود ويلقب بالكسائي- كان يجتمع عليه الناس، ويسألونه عن القراءات والعربية، وهو يجيبهم ويحتج على ما يقوله بأشعار العرب<sup>(١)</sup>.

والمفضل الضبي (ت ١٦٨) راوي الكوفة وعالمها في اللغة والشعر، يتأثر خطوات شيوخه ومعاصريه من رجال المدينتين، فيعرض لبعض النصوص محللاً معرباً. فقد أنشد قول قيس بن زهير، في ذكر الحرب:<sup>(٢)</sup>

وإن شَمَّرْتَ لك، عن ساقها،

فَوَيْها، رَبِيعٌ فلا تَسَامِ

(١) المصدر نفسه ٢: ١٨ .

(٢) أشال العرب ص ٣٩-٤٠ .

ثم قال: إذا نصبت «ربيع» أراد الترخيم: يارببعة. فلما حذف الهاء للترخيم ترك العين مفتوحة. ومن رفع ذهب به مذهب الاسم التام المفرد، وإن كان مرخماً، كقول ذي الرمة: (١)

فيامي، ما يُدريك؟

ثم لا يخفى ما كان عصرئذ لدى أمثال: عيسى بن عمر (ت ١٤٩)، وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤) والخليل بن أحمد (ت ١٧٥) وسيبويه (ت ١٨٠) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢)، والكسائي (ت ١٨٩) والفراء (ت ٢٠٧)، والذين عاصروهم أو خلفوا بعدهم، في متابعة التحليل الإعرابي، بين ثنايا المصنفات والمجالس والمناظرات العلمية والأدبية.

فالنحاة كانوا، عندما يعرضون الضوابط والقواعد، يفسرونها بأمثلة تحليلية توضح المقاصد وتثير السبيل للدارسين. والمفسرون للقرآن الكريم يسطرون كثيراً من التحليلات الإعرابية، لبيان وجوه القراءات ومضامين الآيات. والشارحون للأشعار والخطب والأمثال والحكم يعرضون بعض المسائل، من التحليل للنصوص التي بين أيديهم. والمعربون للآيات والأحاديث والأشعار يلتزمون الوقوف عند كل مشكلة تعبيرية، يوجهون مسالكها ويبينون العلاقات والوظائف الإعرابية ومعاني الأدوات الواردة فيها. وحسبك أن تطلع على كتاب «مجالس العلماء» لأبي القاسم الزجاجي (ت ٣٤٠)، لترى مدى ما كان يتداوله الناس ويختلفون فيه، من مسائل في الإعراب التحليلي.

## ٥- الإعراب الصوتي

وهو «الإبانة عن المعاني بالألفاظ»، كما قال ابن جني<sup>(١)</sup>، أي: تلوين أواخر الكلمات المعربة بما يناسب التركيب، من رفع ونصب وجر وجزم، أو تغيير هذه الأواخر للدلالة على الوظائف التركيبية لها، تبعاً لمطلوبات التعبير. وقد اختلف النحويون في هذا اللون الإعرابي: اللفظي هو أم معنوي؟ وعندني أنه يضم الجانبين، لأنه لفظ مخصوص يدل على وظيفة تركيبية وموقع نحوي.

ولا شك أن العرب كانوا يُجرونه في كلامهم شعراً ونثراً، وفي كتاباتهم قبل الإسلام، خلافاً لما يدّعيه بعض المستشرقين والمستغربين، ثم نزل القرآن الكريم فزاده وضوحاً وتحقيقاً واستعمالاً. حتى إنه قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبَهُ»<sup>(٢)</sup>. وقد قيل: إنّ الإعراب هنا هو تعرف بدائع القرآن ودقائقه، أو معرفة معاني الألفاظ<sup>(٣)</sup>. وهذا تفسير بعيد جداً عن معنى السياق للحديث، ودلالة الأمر بالإعراب، وقد رويت الجملة الثانية منه كما يلي: «فإنَّهُ عَرَبِيٌّ».

(١) الخصائص ١: ٣٥. وانظر دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٥٤٣.  
(٢) المستدرک ٢: ٤٢٩. وقال الحاكم فيه: «(هذا حديث صحيح الإسناد، على مذهب جماعة من أئمتنا)». ورواه البيهقي في شعب الإيمان وابن أبي شيبة في مصنفه. وزاد في آخره بعض الرواة: «(فإنَّ الله يُجِبُّ أن يُعَرَّبَ آيُ القرآنِ)». الورقة ٢٢٣ من النخلة في إعراب شواهد الفصل. وانظر إيضاح الوقف والابتداء ص ١٥-١٦ وفضائل القرآن ص ٢٠١ وتبنيه الألباب ص ٧٥ وقيض القدير ١: ٥٥٨ وجمع الزوائد ٧: ١٦٣-١٦٤ وكثر العمال ١: ٦١١ والتبیر بشرح الجامع الصغير ١: ١٦٩. وقيل: إن الحديث موزع لا أصل له. ميزان الاعتدال ٢: ١٠٣.

(٣) الجامع الصغير ١: ٧٥ والإتقان ١: ١١٣ و٢: ١٧٥.

والدليل على ما ذكرنا أنه قد روي حديث آخر مع ذلك، جاء فيه:  
«أَعْرَبُوا الْكَلَامَ، كَيْ تُعْرَبُوا الْقُرْآنَ»، ثم قيل في تفسير الجملة الثانية منه:  
لتنطقوا به سليماً من اللحن<sup>(١)</sup>. وأوضح من هذا، في الدلالة على ما زعمنا،  
أن عائشة قالت: «ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَمَاءُ لِيَمَا تَهْوَى، يَكُنْ، فَلَقَلَّمَا

يُقَالُ لِيَخِيءُ: كَانَ، إِلَّا تَحَقَّقْ

ولم يقل: تَحَقَّقْ، لثلاً يُعْرَبُ فيصيرُ شعراً<sup>(٢)</sup>. وهذا نص صريح لا يحتاج  
إلى تفسير أو بيان.

فالمراد إذا بالإعراب هنا هو الأداء الدقيق، كما تقتضي لغة العرب  
الفصحاء، إذ الإعراب في الأصل اللغوي هو الإيضاح والبيان  
والتحسين، وليس التعرف والاستبانة. يؤيد هذا ما روي عن أبي بكر  
الصدِّيق، من قوله<sup>(٣)</sup>: «تَعَلَّمُوا إِعْرَابَ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَعَلَّمَ حُرُوفَهُ»،  
وعن عمر بن الخطاب أيضاً أنه قال: «تَعَلَّمُوا إِعْرَابَ الْقُرْآنِ، كَمَا  
تَتَعَلَّمُونَ حِفْظَهُ»<sup>(٤)</sup>. فالمراد أن يكون التعلم للحفظ مقروناً بالضبط  
السليم المتقن، بعيداً عن اللحن والاضطراب.

(١) الجامع الصغير ١: ٧٥ وإيضاح الوقت والابتداء ص ٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٥٥٦ وفتح القدير ٤: ٥٣٥ .

(٣) تنبيه الألباب ص ٧٦ . وانظر إيضاح الوقت والابتداء ص ٢٠ و٢٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١: ١٦٦ . وقد أورد النحاس هذا القول على أن المراد به التحليل  
الإعرابي . والظاهر خلاف ذلك .

ولقد تتبع أبو الأسود الدؤلي مظاهر هذا الإعراب، في ممارساته التدريسية والتعليمية خلال عشرات السنوات، ورصد صورها وأشكالها المختلفة، ثم شرع يثبتها في المصحف الشريف، بمدينة البصرة على عهد واليها زياد بن أبيه (٤٥-٥٣). قال<sup>(١)</sup>: «رأيتُ أن أبدأ بالقرآن». واختار مَنْ يثق به من بني عبد القيس، وأمره بقوله: «خُذِ المصحف وصِغْهُ بِخالف لون المِدَاد. فإذا فتحتُ شَفْتَيَّ فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتُهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتُهما فاجعل النقطة في أسفله. فإن أتبعْتُ شيئاً من هذه الحركات عُتَّةً فانقط نقطتين». فابتدأ بالمصحف من أوله، حتى أتى على آخره بذلك، ثم صنف كتابه الذي سُمِّي «المختصر»، يبسط فيه الأصول والفروع التي تبنت له من تنفيذ ذلك العمل الكريم.

ولابد من الإشارة ههنا إلى أن الإعراب الذي نفذه أبو الأسود، في المصحف الشريف، لم يكن مقصوراً على أواخر الكلمات المُعرَّبة، كما يقرّر كثير من الدارسين للنحو في العصر الحديث، بما صرحوا في كتب ومقالات ومحاضرات ومؤتمرات وندوات. وإنما شمل جمهور الحروف المكوّنة للكلمات، من دون تمييز بين معرب ومبني، فضبطها كما قال، وكان فيه تحقيقٌ لِمَا ذكرنا في إعراب البُنية قبل. وهذا ما تنبّهتُ إليه،

(١) إيضاح الوقت والابتداء ص ٤١ والمحكم في نقط المصاحف ص ٧ ومراتب التحوين ص ١٠. والزعم أن هذا النقط كان يعرفه العرب العنانيون قبل حنين أبي الأسود، أو أنهم أخذوه عن العرب السريان، ادعاء باطل عاجز عن البرهان، وتقول مردود بإجماع الروايات المتواترة والأخبار الصحيحة الموثقة. وكان أبو الأسود يعلم تلاميذه بعض ذلك منذ عشرينات القرن الهجري الأول، كما مر بنا في ذكر الحر بن عبد الرحمن النحوي قبل قليل.

بفضل الله - جل وعلا - وقل من ذكره من النحاة القدماء والمعاصرين، مع أن أصحاب علوم القرآن كانوا على إدراك له صريح، وبيان لأبعاده بدقة ووضوح.

فأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤) مثلاً، حين عرض لنقط أبي الأسود، قال: «إِذَا ضُبِطَ قَوْلُهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جَعَلَتْ الْفَتْحَةُ نَقْطَةً بِالْحَمَاءِ فَوْقَ الْحَاءِ، وَجَعَلَتْ الْضَمَّةُ نَقْطَةً بِالْحَمَاءِ أَمَامَ الدَّالِ، وَجَعَلَتْ الْكَسْرَةُ نَقْطَةً بِالْحَمَاءِ تَحْتَ اللَّامِ وَتَحْتَ الْهَاءِ. وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِسَائِرِ الْحُرُوفِ الْمُتَحَرِّكَةِ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ»<sup>(١)</sup>.

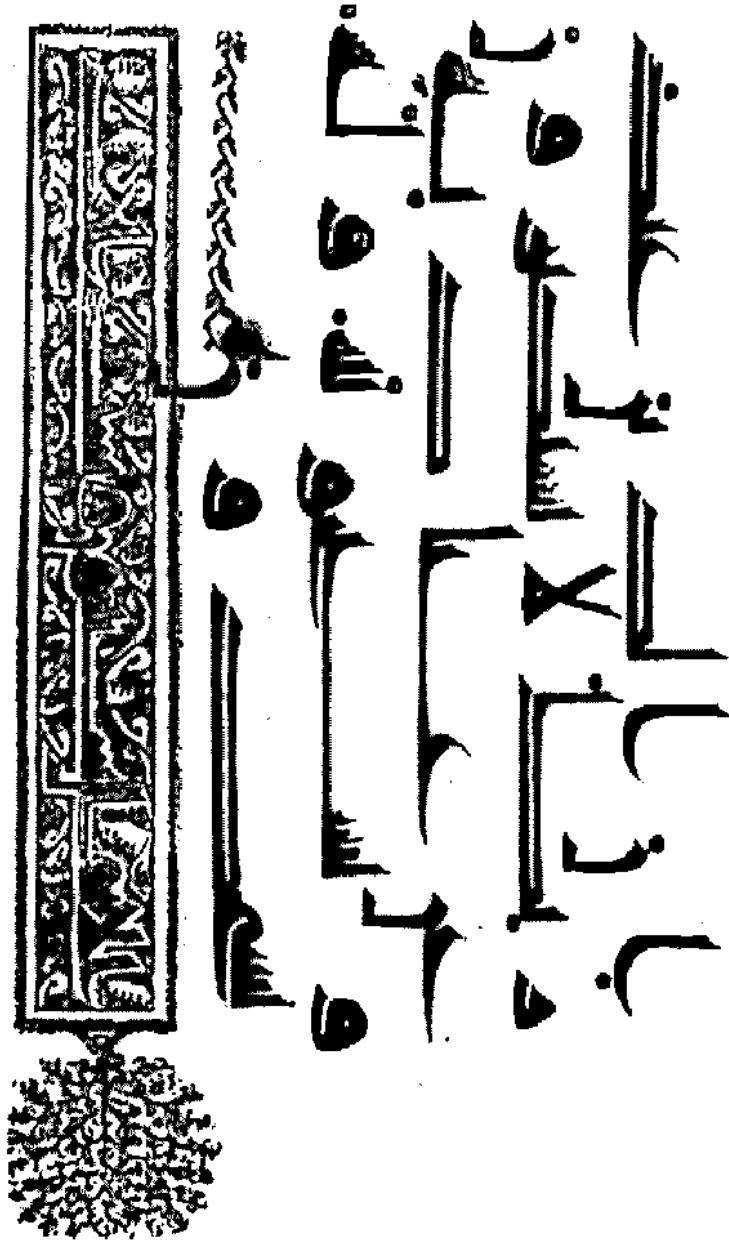
وقد انتقلت هذه الظاهرة الإعرابية إلى مصاحف ذلك العهد، بصور مختلفة من الاستيعاب، فكان بعض النُسخ يتخففون في النقط، وآخرون يترسطون، كما ترى في النماذج الثلاثة المصورة بعد. ثم إن بعض العلماء كانوا يكرهون ذلك الضبط<sup>(٢)</sup>، صيانة للنص القرآني من التثحيم، ولئلا يعتمد العرب الفصحاء على الضبط وحده ويستمرئوه، فينسوا ملكتهم الأصلية.

غير أن من خلف بعد ذلك، من النحاة واللغويين، استطاعوا تمييز هذا النوع المخصوص من الإعراب، حين اكتشفوا من الألفاظ ما يلزم آخره صورة واحدة من الضبط، مهما تغيرت وظائفه في التركيب

(١) انظر ص ١٢٦ من المنع في: معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط. والصواب أن هذا الكتاب فيه مصنفان: الهجاء في المصاحف، والنقط. وكلاهما لهما عنوان واحد هو المنع. انظر ص ١٣ من مقلته رص ١٢٢-١٢٥ م.

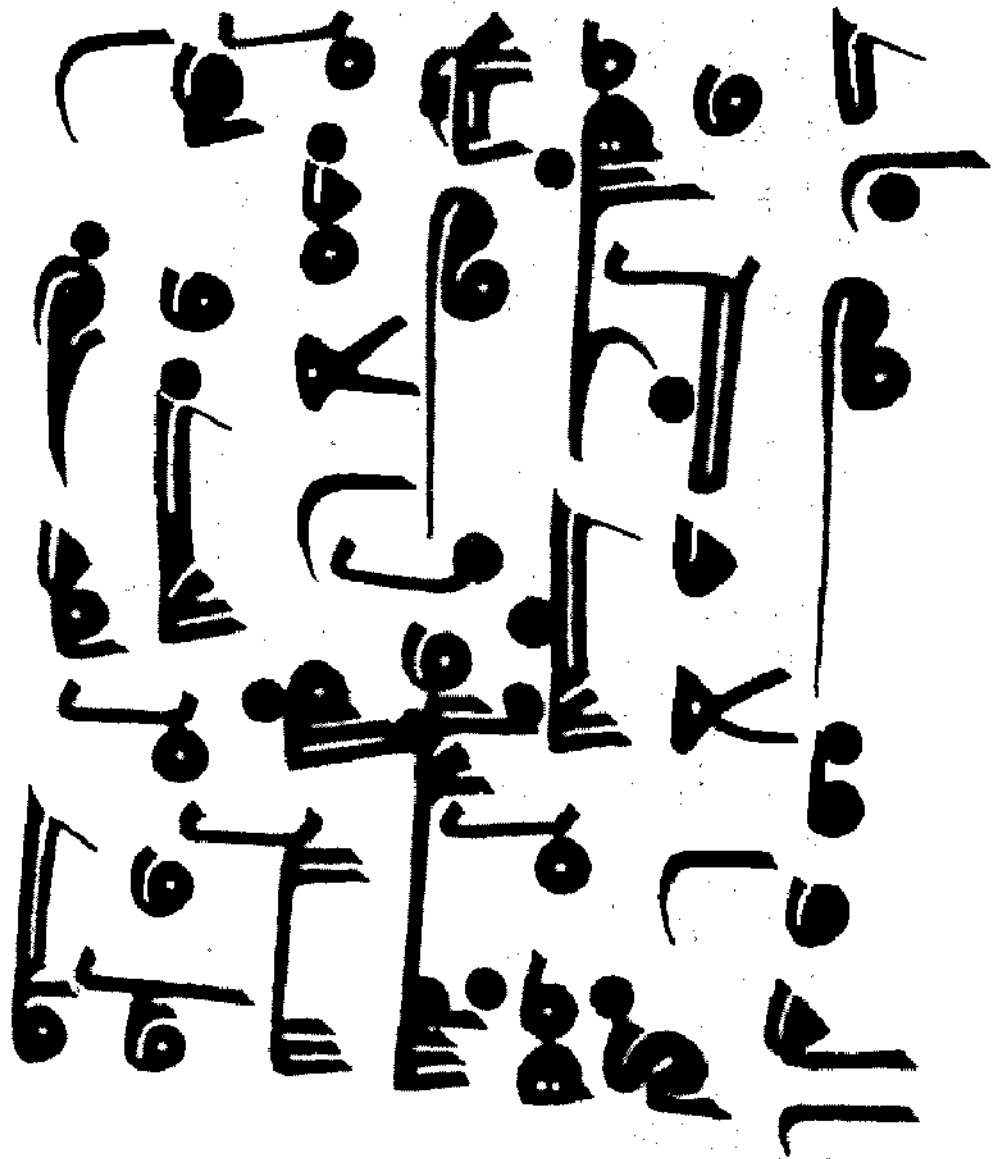
(٢) المحكم في نقط المصاحف ص ١٠.

التعيري. ولذلك أصبح لديهم في المفردات ما هو مُعَرَّبٌ، أي: متعدد أوجه الضبط بحسب مواقعه في السياق، وما هو مَبْنِيٌّ، أي: يحفظ بصورته دائماً أو غالباً حيثما وقع من التعبير. ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهدب أسلوب الدؤلي في الضبط، بوضع الحركات المتعارفة الآن، مع زيادة صور للسكون والهمز والتضعيف والتخفيف والمد والروم والإشمام...

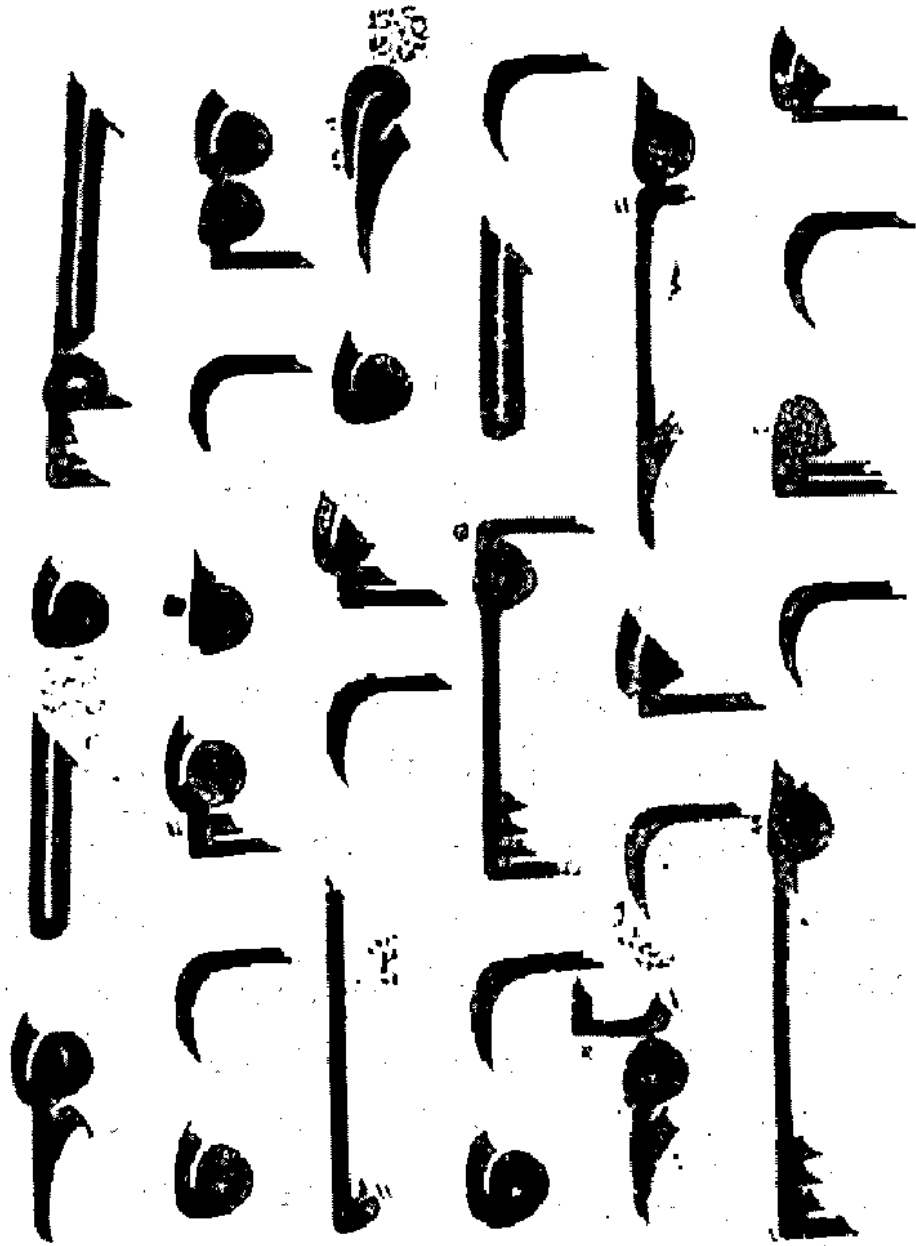


آخر سورة الأعراف، بخط كوفي مشكول على طريقة أبي الأسود: إِنَّ  
الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسَبِّحُونََهُ وَلَهُ يُسْجُدُونَ. (وفي  
الدليل نوطة لسورة الأنفال).





صفحة من القرآن الكريم، بالخط الكوفي المشكول على طريقة أبي  
الأسود: الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد عليهم سيفليون، في بضع  
سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد. ويومثل يفرح أ.



صفحة رق غزال من المصحف المنسوب إلى الإمام علي، في خزانة  
الروضة الحيدرية بالتجف، وفيها بالخط الكوفي المشكول بنقط أبي  
الأسود: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ  
الْمَوْعُودِ. وشاهد.

## الفصل الثاني

### نظريات لتفسير العمل

لر استعرضت معنا تلك الأنواع من الأعراب، التي بسطنا القول فيها حتى الآن، واسترجعت محتواها وأبعادها، وتصفحنا الجوانب المختلفة لها، لرأيت أن الأخير منها كما يفهمه الدارسون، أي: الشطر الأول مما ذكرنا في ختامه من تميز بين نوعي المفردات، هو يمثل العمل الإعرابي. بيد أن كثيرين من قدماء النحاة تساعوا في استعمال الاصطلاح أحياناً، فتوهم عليهم ما لم يقصدوا. ومن ثم بدا في كتب المتأخرين والمعاصرين، وفي مقولاتهم وأحكامهم، تخليط ظاهر بتوظيف هذه الأعراب المختلفة، واستخدامها في مواقع وسياقات غير مناسبة، من الدرس والبحث، وكثر الخلاف والحجاج نتيجة لذلك التخليط<sup>(١)</sup>.

وعندما تتصفح كتب النحو القديمة، تجد حديثاً مفصلاً عن الإعراب الصوتي هذا، وتعبيراً عنه بأنه عمل لغوي، يتمثل في أثر ظاهر لدى كثير

---

(١) ينظر ص ١٥-١٨ من ظاهرة الإعراب وص ١١-١٦ من دراسات في الإعراب.

من مفردات التركيب النحوي. إلا أن هذا التعبير وذلك العرض لم يقدّما تفسيراً محدداً لآلية العمل المذكور، وإن كانا قد رجعا به إلى الحاجات التركيبية التي تتعَوَّر الكلمات في العبارة، وتحمّلها دلالات إعرابية مختلفة، تقتضي صوراً تلازم كلاً منها، وتدل عليها السامع والقارئ، لتحدد لهما مقاصد إنجاز الكلام.

فالعمل الإعرابي - كما ترى - ظاهرة حاضرة في أذهان المتكلمين والسامعين، ولدى الكتاب والقراء والباحثين في المجال النحوي. ثم إن الحديث عنها مستفيض، يشغل جميع الكتب والرسائل النحوية، ويعرض نماذج واقعية كثيرة جداً تحقق ما ذهبنا إليه، وتحمل الدارس على الاهتمام بها ومتابعة استطلاعاتها المتكاثرة. إلا أن هذه الظاهرة اللامعة المستفيضة المتطاولة، مع مآزكرناه من أهميتها، لم تُؤَلَّ حقها من البحث الدقيق، ولم يوضع لها حل واضح في المصادر التراثية. وقد حاول كثير من النحاة والدارسين بعد أن يتناولوها بالتفسير، ويردوها إلى أسباب مباشرة أو غير مباشرة، يمكننا استعراضها في النظريات التالية:

### ١- النظرية اللفظية

يصادفك في مصادر التراث النحوي عبارات، تُنسب العمل الإعرابي إلى ألفاظ ظاهرة أو مقدرة. فالخليل بن أحمد جعل<sup>(١)</sup> «نعم وبشر»

(١) الجمل في النحو ص ٧٠ و١٢٨ و١٣٥-١٣٧ و١٦٧ و١٧٢ و٢٠٢ و١٥٨ و٣٦ و٩٤.

وأخواتهما تنصب النكرة وترفع المعرفة، وجعل «أن» تنصب الأسماء، و«مذ ومنذ» يرفعان ما بعدهما ويجرانه، وذكر الرفع بـ «هل» وأخواتها من حروف الرفع، والجر بـ «عن» وأخواتها، وذكر أيضاً أن الفاعل يُرفع بفعله، والمبتدأ يُرفع بالابتداء، والمفعول به يوقع عليه الفعل، وأشار إلى العمل الإعرابي حين ذكر لغة تميم في التعبير بـ «ليتما».

وخلف الأحر (ت ١٨٠) يضع في مقدمته<sup>(١)</sup> أبواباً، للحروف التي ترفع والتي تنصب والتي تحفض والتي تجزم، ثم يجعل «إن» وأخواتها ناصبة للأسماء والنعوت ورافعة للأخبار، و«كان» وأخواتها رافعة للأسماء والنعوت وناصبة للأخبار، و«أن» وأخواتها ناصبة للأفعال، و«منذ» خافضة و«مذ» خافضة ورافعة، و«رُبَّ» و«كم» خافضتين فحسب. كل ذلك تفصيل لما نص عليه في خطبة كتابه، من مجموع العوامل.

أما سيويه فقد كان أبعد في التعبير عن هذا المعنى، إذ صرح بلفظ العامل مراراً<sup>(٢)</sup>، وذكر أن النصب والجر والرفع والجزم تحدثها العوامل التي لكل منها ضرب من اللفظ في حرف الإعراب، وأن الفتح والكسر والضم والرقف بناء، لا يزول ولا أثر للعوامل فيه، وأن العرب إذا أعملت شيئاً مضمراً لم تخرجه عن عمله مظهراً في الجر والنصب والرفع، وأن ما يعمل في الأفعال لا يعمل في الأسماء، وما يعمل في الأسماء أيضاً لا يعمل في الأفعال.

(١) ينظر نصوص غوية من ١٢-١٤ و ٢١ و ٢٥-٢٦ و ٣٠ و ١١.

(٢) الكتاب ١: ٣ و ٥٤ و ٤٠٩.

وكذلك كان شأن من عاصر هؤلاء أو جاء بعدهم . فالقراء يقول<sup>(١)</sup> :  
أعِملْ في «ما» و«أي» الفعل الذي بعدهما ، ولا تُعمل الفعل الذي قبلهما  
إذا كان مشتقاً من العلم ، والظنُّ ناصب ، و«كان» و«ليس» يرفعان ،  
و«إن» وأخواتها ينصبن ، ولَمَّا حُذِفَ الناصب رفعت . . .

ولقد تلبث النحاة بعد هؤلاء الأعلام إزاء تلك العبارات وأمثالها ،  
يتناولونها بالبحث والتأويل ، فكان أن حددوا مراميها بالقول : إن العامل هو  
المفردات ، من فعل أو اسم أو حرف . لكنهم يريدون ما في هذه المفردات من  
معنى للمصدر مضمن<sup>(٢)</sup> . ثم تابعهم المتأخرون بتفسيرات وحواش  
وتقريرات ، فإذا العامل هو لفظ هذه المفردات نفسه مجرداً من معناه ، لأن  
المعاني - كما قالوا - إنما تعمل في المبتدأ والمضاف إليه والتابع مثلاً .

وبهذا صار لديهم عوامل كثيرة بلغ عددها المائة<sup>(٣)</sup> ، فيها أصلي وفرعي ،  
وقوي وضعيف ، وملفوظ ومقدر ، وموجود ومعدوم ، ومبدل ومبدل  
منه . . . كما تميز فيها نواصب وجوازم وحروف جر ، وما يرفع وينصب ، وما  
ينصب ويرفع ، وما ينصب مفعولين أو ثلاثة . . . وكثر الخلاف بين العلماء  
والحجاج والاستدلالات ، فاختلفت تلك الأصناف والأقسام والألوان  
وتداخلت برمتها في نظريات متعددة ، حتى رأينا مثلاً أن<sup>(٤)</sup> :

(١) معاني القرآن ١ : ٤٦ و ٥١ و ٥٣ .

(٢) انظر الخصائص ٢ : ٢٧٧ .

(٣) انظر كتاب «العوامل المائة النحوية» لعبد القاهر الجرجاني وشرح الأزهرى عليه ، والمرئجل  
لابن الحشاب .

(٤) شرح الأشموني وحاشية الصبان عليه ١ : ١٩٣ و ٢ : ٤٣ و ٨٧ و ١٠٩ و ١٢٢ و ١٢٦ و ١٣٥  
و ١٤٣ و ٢٣٨ . والمائل ٦ و ١٠ و ١٣ و ١٩ و ٢٤ و ٢٩ و ٣٤ و ٥٥ و ٥٧ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٢ و ٨٨  
و ٩١ و ١١٩ و ١٢٠ من الإنصاف في مسائل الخلاف .

رافع المبتدأ هو الابتداء أو الخبر، أو الذُّكر الذي في الخبر، أو التجرد من العوامل، أو الإسناد أو الأولية، أو الشَّبه بالفاعل.

ورافع الخبر هو المبتدأ أو الابتداء، أو الابتداء والمبتدأ معاً، أو الابتداء بوساطة المبتدأ.

ورافع الفاعل هو الإسناد، أو الشَّبه بالمبتدأ، أو الفعل وما أشبهه، أو الفاعلية، أو تفرغ الفعل له، أو إحداثه للفعل.

ورافع الفعل المضارع هو تجرده من العوامل، أو وقوعه موقع الأسماء، أو حرف المضارعة، أو المضارعة للاسم، أو الإهمال، أو السبب الذي أوجب له الإعراب.

وناصب المفعول به هو الفعل وما أشبهه، أو الفاعل، أو الفعل والفاعل معاً، أو المفعولية. وكذلك سائر المفعولات. وقيل: بل ناصبها شَبه المفعول به. وزيد في عامل المفعول معه أنه هو الواو، أو الفعل المضمر أو الخلاف. وقيل: الواو مهيئة لنصبه نصبَ الظرف «مع».

وناصب المستثنى هو «إلا»، أو ما قبلها من الفعل، أو الفعل بوساطتها، أو «أنَّ» مقدرة بعدها، أو «أنَّ» مخففة من «أنَّ» رُكِّبت مع «لا» فكُثرت الهمزة، أو الخلاف، أو فعل مقدر.

وجارُّ المضاف إليه هو المضاف، أو الإضافة، أو حرف جر محذوف، أو «عند» محذوفة.

وجازم جواب الشرط هو الأداة، أو فعل الشرط، أو الأداة مع فعل الشرط، أو الجوار.

وجازم جواب الطلب هو الأداة المحذوفة، أو الطلب نفسه، أو الأداة نائباً عنها الطلب، أو معنى الجواب، أو اللام المحذوفة...

ثم ظهر أن للعوامل تقسيماً آخر، يضم خمسة أنواع: ما يعمل لفظاً ومعنى، كحروف الجر والنصب والجزم، والمضاف إضافة مجازية. وما يعمل معنى فقط، كحروف الاستفهام والعطف. وما يعمل لفظاً فقط، كأحرف الجر الزائدة. وما يعمل معنى ولفظاً ولا يعمل حكماً، كاللام الزائدة في: لا أبا لك. وما يعمل حكماً ولا يغير معنى ولا يؤثر في لفظ، كقولك: علمتُ لزيدٌ صادق. وقد يكون في العامل ما يشبه النوعين الأول والثاني، كما هو الشأن في «من» الزائدة بعد نفي أو استفهام بـ «هل» أو «نبي»، لأنها تفيد التنصيص على استغراق الجنس أو تركيد الاستغراق. وكذلك الباء الزائدة لتركييد النفي<sup>(١)</sup>.

ولهذا كله، بالإضافة إلى ما انصب فيه من اعتلال وجدال وتمحل، رأينا القاضي الظاهري ابن مضاء (ت ٥٩٢) في الأندلس يضيق بالنظرية اللغوية<sup>(٢)</sup>، ثائراً عليها ومسفهاً إجماع النحاة وإصرارهم على تحكيمها في موضوعات النحو والإعراب. ذلك لأنه -كما يقول- يستحيل أن تحدث الألفاظ بعضها بعضاً، ويجب في العامل أن يكون حاضراً حين العمل مع أنه لا يحدث الإعراب إلا بعد غياب العامل المزعوم، وليس في هذه العوامل ما يفعل بالإرادة كالحَيوان، أي: المخلوق الحي، ولا ما يفعل بالطبع كالنار والماء.

(١) المتصّد ص ٨٨-٩١. والأنواع فيه ستة، آخرها هو غير العامل. وانظر المرجع ص ٣٢٢.

(٢) الرد على النحاة ص ٨٧-٨٨. وانظر الحصائل ١: ١٠٩ وأصول النحو العربي ص ٢٥١-



وكان في المشرق أيضاً من نفى أن يكون للعامل اللفظي أثر حقيقي في المعمول، وذهب إلى أن العوامل أمارات وعلامات لِمَا يقع من الإعراب<sup>(١)</sup>، فتعقبه من أنكر عليه هذا الزعم وأسقط نتائج<sup>(٢)</sup>.

ثم جاء في العصر الحاضر من الباحثين مَنْ يتابعون تلك الثورة على العامل اللفظي، ويزعمون أن حضوره في تراث النحو هو تأثير بالمنطق الأرسطي.

والحق أن هذا الزعم هو ادعاء مستورد تأثراً بمقولات المستشرقين، وهو مفتقر إلى دليل واقعي ملموس. أما الإشكال، في تحميل اللفظ وحده مسؤولية العمل، فظاهر في الاستعمال المنجز للتعبير. فأنت ترى أن اللفظ الواحد، بصورته المحددة، يكون حوله أعمال مختلفة جداً، وهو لم يطرأ عليه تغيير. مما يثبت أن عمله المختلف هذا لم يكن بلفظه وحده.

وذلك نحو قولنا: ضربَ القلبُ، وضربَ الزمانُ، وضربَ الجرحُ، وضربَ زيدٌ في الماء، وضربْتُ في الأرض، وضربتُ في الأمرِ بسهم، وضربنا عن السقر، وضربوا الدرهم، وضربنَ الودَّ، وضرب لونه إلى السواد، وضربتُ بيدي إلى صدري، وضرب النومُ على أذنه، وضرب الدهرُ بينهم، وضربتُ به الأرض، وضربتُ عليه الحصار، وضربوا له مثلاً، وضربتمُ عدداً في آخر، وضربتما لي موعداً، وضربتنَ قصتها مثلاً، وضربتُ على يدك، وضرب الليلُ بظلامه، وضربن اللبنُ بالماء، وضربتُ

(١) الإنصاف ص ٣٢-٣٣ وأسرار العربية ص ٦٨-٦٩.

(٢) شرح المفصل ١: ٨٤-٨٥.

الرُّزَّ، وضربتم الرِّقْمَ القِيَّاسِيَّ، وضربتما أخماساً لأسداس، وضربتُ على أوتار قلبك، وضربتُ بالسهم في أعشار قلبه، وضربتُ بينهم بسور...

وفي أمثال هذه العبارات، نجد العمل النحوي كان مشتركاً بين الأفعال وما ألحق بها من عناصر كلامية. حتى إن الفعل نفسه قد اكتسب بالعناصر الحاضرة وظائف لغوية وإعرابية متنوعة بما يوافق السياق النحوي، وكثيراً ما فقد بعض تميزه البنائي على الفتح أيضاً بما يجاري السياق اللفظي. ثم إن تلك العناصر تحملت من يحمل العبارات وظائف تركيبية وأصواتاً إعرابية تناسب وظائفها المنجدة في المقال.

هذا شأن الفعل المجرد وحده، والأمور في المزيدات أعقد وأبعد. وكذا الحال في الاسم والحرف. فالمصادر والمشتقات والأسماء المحمولة عليها تعمل عمل أفعالها، فيكون لها مثل تلك الوجوه المتعددة. ثم إذا انتقلت هذه المفردات بالفاظها إلى أسماء الذوات فقدت ما يكون لها من النشاط المتنوع. وكذلك شأن حرف المعنى، يتلون في التركيب أحياناً بوظائف تعبيرية متفاوتة. كأن تقول: إنَّ تجهذ تنجح، وإنَّ أنتَ إلا تلميذ، وإنَّ أظنُّكَ لصادقاً، وما إنَّ أخوك مريض.

فلو كان العمل للألفاظ وحدها لما وقع أمثال ما ذكرت، من تعدد صور المعمولات مع وحدة الصورة اللفظية للعامل، اسماً كان أو فعلاً أو حرفاً. وعندني أن للعمل الإعرابي عناصر متعددة، تشارك اللفظ ويكون لها حضور ظاهر في التركيب. وهذا أمر يقتضي البسط في مجال آخر، إن شاء الله.

## ٢- النظرية المعنوية

اعتاد النحاة القدماء أن يكون لديهم، مع التفسير اللفظي للإعراب، شذرات تنسب إلى المعاني النحوية عملاً في المفردات. وأنت تقف على كثير من العبارات في كتبهم، يجعل للمعاني التي هي وظائف تركيبية أثراً صوتياً فيما يرافقه من المفردات، ويصطلح له اسماً يعبر عنه في التركيب. وقد عرضت فيما مضى، من النظرية اللفظية، نماذج وافرة تضم بعض هذه التسميات.

ثم إذا تصفحت المصادر النحوية القديمة صادفتك تلك المقولات، مبثوثة فيها على غير نظام. ففي «الجملة» للخليل<sup>(١)</sup>: النصب أحد وخمسون وجهاً: نصب من مفعول، ونصب من مصدر... والرفع اثنان وعشرون وجهاً: الفاعل، وما لم يذكر فاعله... والخفض تسعة: خفض بالإضافة، وخفض بالجوار... والجزم: اثنا عشر وجهاً: جزم بالأمر، وجزم بالنهي، وجزم بجواب الأمر والنهي بغير الفاء، وجزم بالمجازاة، وجزم بنجر المجازاة، وجزم بالوقف، وجزم بالدعاء...

وهذا خلف الأحمر يحدثك بقوله<sup>(٢)</sup>: كل مضاف أضيفه إلى شيء فالمضاف إليه خفض، والرفع يأتي من ستة وجوه وهي: الفاعل، وما لم يُسم فاعله، والابتداء، والخبر، واسم «كان»، وخبر «إن»، والنصب يأتي من اثني عشر وجهاً، وخبر المعرفة منصوب أبداً نحو: «وهذا بعلي

(١) ص ٣٤ و ١١٧ و ١٧٢ و ١٩٠.

(٢) نصوص نحوية ص ١٣ و ١٥ و ١٦ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٥.

شَيْخاً<sup>(١)</sup>، وباب النداء المفرد وهو رفع، وباب النداء المنسوب وهو نصب كله، وباب التُدْبِة وهو منصوب، وباب الاستثناء وحروفه نصب كلها، وباب التحقيق وهو رفع كله، وباب التحذير والإغراء وهو منصوب كله...

وهذا القراء أيضاً يقول، عن بعض النصوص القرآنية<sup>(٢)</sup>: ولو كان «اللسان» مرفوعاً لكان صواباً على أنه نعت، و«مَنْ» في موضع رفع، و«المقيمين» موضعه خفض، وتكون «أَنْ» في موضع رفع، وإن شئت كانت في موضع نصب، وجاز النصبُ على الجواب والرفعُ على الاستئناف، والنصبُ جائز على الصرف، و«فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ» مخفوض في الإعراب تجعله صفة من صفات «الله» - تبارك وتعالى - ويُرفع «خَالِقُ» على الابتداء وعلى أن يكون خبراً، و«ذَكَرَى» في موضع نصب ورفع...

فإن قلت: هذه العبارات، على كثرتها وأهميتها، ليست نصاً بالعمل النحوي أو الإعرابي، وتحليلها في تلك المصادر يحتمل العمل اللفظي أو الإنساني. قلنا: نعم فهي تحتمل ما ذهبنا إليه وما ذكرت. وإليك أمثلة أخرى هي نص في المقال وتأي الاحتمال، ثم هي تؤكد العمل المعنوي في الإعراب.

فالمبتدأ مرفوع<sup>(٣)</sup> عند سيبويه بالابتداء، وقيل: هو مرفوع بالإسناد أو

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

(٢) معاني القرآن ١: ٥٦ و ٦٥ و ١٠٧ و ٢١١ و ٢٧٦ و ٣٢٨ و ٣٤٨ و ٣٧٠.

(٣) الكتاب ١: ٧ و ٢٩٢ والأشياء والنظائر ١: ٢٣٧-٢٣٨.

بشبه الفاعل أو بالإخبار عنه. والخبر<sup>(١)</sup> مرفوع بالمبتدأ، أو بالابتداء مع توسط المبتدأ، وهذا العقد بينهما أمر معنوي. والفعل المضارع مرفوع عند البصريين بحلولة محل الاسم، أو بالمضارعة للاسم، أو بالإهمال. والفاعل مرفوع بالفاعلية، أو بشبه المبتدأ، أو بإحداثه الفعل، ونائبه مرفوع بالنيابة عنه. والمفعول به منصوب بالمفعولية، وكذلك سائر المفعولات أو بشبهها المفعول به، إلا المفعول معه قيل: إنه منصوب على الخلاف، أو بانعتاد توسط الواو لدى الفعل. والمستثنى والظرف الواقع خبراً هما أيضاً منصوبان بالخلاف.

واسم «كان» وأخواتها مرفوع بشبه الفاعل، وخبرهن منصوب بشبه المفعول. والمضاف إليه مجرور بالإضافة. وجواب الطلب مجزوم بالطلب نفسه، أو بمعنى الجواب. والصفة معربة بالوصف لصاحبها، والتوكيد والبذل بالتبعية. ثم يكون معنى الجملة عاملاً في جملة أو مفرد، وقد يكون للحرف عمل لفظي وآخر معنوي<sup>(٢)</sup>.

تلك صور غفيرة من أصداء النظرية المعنوية، تجعل العامل في المفرد هو الوظيفة التركيبية التي يمثلها. ولو جمعت أنت بقية الصور الشبيهة بها كان عندك اتجاه معنوي واضح، في تفسير العمل الإعرابي. وقد تحمس كثير

(١) التبيين عن مقام التحرين ص ٢٢٩-٢٣٠. وأتحم في عنوان مطبوعة هذا الكتاب زيادة ((البصريين والكوفيين))، خلافاً لأصول التحقيق. وانظر الإرشاد إلى علم الإعراب ص ١٠٩-١١٠.

(٢) أعجب العجب في شرح لامية العرب ص ١٢ و ٦٠ والكشاف ٣: ٥٠٩ و ٢٠٨.

من المعاصرين لهذا التوجه، وجعلوه النظرية المثلّية في فهم ظواهر الإعراب<sup>(١)</sup>.

يبد أن هذه المحاولات، على كثرتها وتعدد مصادرها، لا تستوعب كل ألوان التغيرات الصوتية في التعبير، نحو: اسم «إنّ» وأخواتها وأخبارهن، وبابيّ الاشتغال والتنازع، والحال والتمييز، والمجرور بالحرف، والمنصوب بترع الخافض، والفعل المضارع بعد النواصب أو الجوازم، وأساليب القطع والمدح والذم والاختصاص، والاسم بعد حروف العطف... ولذا سفه ابن مضاء هذه النظرية، ونفى وجود العقل عند من يدعيها<sup>(٢)</sup>.

ثم هي تقيم أحكامها على أن العلاقات النحوية ووظائفها أمور معنوية خالصة، فتعيش محدودة الأبعاد، إذ تُغفل ما في التركيب من علاقات وانفعالات لفظية، تغلب أحياناً على الأبعاد المعنوية. فالمبتدأ والفاعل في المعنى قد يكونان مجرورين نحو: هل عندك من سؤالي؟ وكيف بالطفل إذا جاع؟ وأعجبنى صدق أخيك. والمجرور بالحرف ينصب لحذفه: قعدتُ طريق السوق. والمنصوب قد يجر أيضاً: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟﴾<sup>(٣)</sup> و﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾<sup>(٤)</sup> و﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) إحياء النحو ص ٦٨-٧٢ وفي النحو العربي ص ٢٨ وأصول النحو العربي ص ٢٦٩-٢٧٠ والنحو الرصفي ص ٦٨-٧٢.

(٢) الرد على النحاة ص ٧١.

(٣) الآية ٣ من سورة الملك.

(٤) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٤٠ من سورة يس.

وكذلك الصفة تجدها أحياناً مخالفة للموصوف في إعرابه، مثل قولك :  
 لجأتُ إلى صديق كريمة أخلاقه، وأصبح أخوك بعيداً نظره. «كريمة»  
 و«بعيداً» صفتان في المعنى لما بعدهما، وهما مخالفتان للموصوف الذي صار  
 فاعلاً في التركيب. وإذا تقدمت الصفة على الموصوف أيضاً، مضافة إليه  
 أو غير مضافة، خالفته في الإعراب، نحو: هذا مجرد ادعاء، و«لَمِيَّةٌ»  
 مُوجَّهَةٌ ظِلٌّ. بل قد تخالفه وهي بعده نظير: «وَصَلَّى وراء قومٍ  
 قياماً»<sup>(١)</sup>، ومررتُ برجلٍ قائماً، وبماءٍ قعدة رجلٍ، وعليه مائةٌ بيضاً<sup>(٢)</sup>.

والمميّز للمبهم يتلَوّن بأعاريب مختلفة. فانت تقول: عندي خمسة  
 أقلامٍ وعشرون كتاباً وستة دفاتر، وهذا خاتم ذهباً وخاتم ذهب وخاتم  
 ذهب وخاتم من ذهب. والجواب يجوز وينصب ويرفع في نحو: اجتهد  
 تنجح، واجتهد لتنجح، وإن تجتهد تنجح، وتنجح إن اجتهدت، وإذا  
 يشاء يفعل.

والخلاف المذكور في الظرف المخبر به هو نفسه حاضر في المبتدأ مثلما  
 هو في الخبر من قولك: الكتابُ أمامك. فلماذا يقتصر النصب على  
 الظرف من دون الاسم قبله، وكلاهما في خلاف؟ والمنادي يُنصب ويُبنى  
 على الضم، كما في قولنا: يا رجلاً، ويا رجلاً، ويا عبد الله، ويا عموداً،  
 ويا أميمة، وأُبَيّين.

(١) الموطأ ص ٩٧ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٧٢ والمقتضب ٤ : ٢٨٦ و ٣٩٧ .

أضف إلى هذا أن الخلاف بين اللهجات، وبين التقديرات الصناعية، يولد أعاريب متباينة للعبارة الواحدة. ومن ذلك نظائر: **إِنَّ حَرَّاسَنَا أَسَدٌ** أو **أَسَدًا**، وليت العمر شبابٌ أو شباباً، وكانَ زيداً بحرَّ أو بحرّاً، وما أنت عدوّ أو عدوّاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله أو لا حول ولا قوة إلا بالله، وما جاء أحد إلا زيدٌ وإلا زيداً، ولم ينجح إلا عليّاً أحدٌ أو إلا عليّ، وكان مزاجها عسلٌ وماءٌ أو عسلاً وماءً، وعليّ بنُ أبي طالبٍ أو ابنُ أبو طالبٍ، و﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أو **مَطْوِيَّاتٍ**<sup>(١)</sup>، وزيدٌ -أظنُّ- ناجحٌ أو زيداً أظنُّ ناجحاً، وتقول أخوك مريضٌ أو أخاك مريضاً، ويا جعفرَ بنَ محمدٍ أو جعفرُ، و﴿وَعَنْ غُصْبَةٍ﴾ أو **غُصْبَةٍ**<sup>(٢)</sup>.

والواجب على النظرية العلمية، التي تتعرض بالبحث لظاهرة، أن تشمل بالتفسير جميع العناصر المكونة لها، وتضع حلاً يستوعب تلك العناصر، ولا تُخلُ بجانب لتُشغل آخر، أو تهتم بقسم وتهمل الباقي. وقد تحقق أن النظرية المعنية لم تستطع ذلك حتى الآن.

### ٣- نظرية التعليق

يرى بعض المتأخرين من النحاة أن العمل الإعرابي حصيلة، لتثبُّت الكلمة بما يتمم معناها<sup>(٣)</sup>. وتفسير ذلك أن الاسم له معنى مستقل غالباً،

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(٢) الآية ٨ من سورة يوسف. والنصب قراءة الإمام علي بن أبي طالب. البحر ٥: ٢٨٣.

(٣) نتائج الفكر ص ٦٨ و٧٤-٧٥. وانظر دلائل الإعجاز ص ٦-٥ و٤٦ و٤٨ و٢٠٧. ولعل مصدر هذه النظرية هو ما عرف لدى القدماء، كرنج الخبر بالملازمة عند سيبويه وأنصاره وترافعهما عند الكسائي والفراء بالتلازم أيضاً.



ولا تثبُّث له بغيره، فليس له عمل أصلاً. أما الفعل فيدل على معنى في الفاعل، وهو أنه غيَّرَ عنه. ثم إن تضمنه للحدث هو باشتقاقه من المصدر، فهو يدل على معنى في نفسه بالمطابقة، كما يدل المصدر، نحو: الضرب والجلوس والدفع والجمع. وهذا قصور في الدلالة يعني حاجته إلى الفاعل أيضاً، ليحقق فيه معناه ويتم مقصده.

ومن ثم حملته هذه الحاجة على التعلق بالاسم، وأوجبت له أن يكون عاملاً فيه. وكذلك شأن الحرف، يدل على معنى في غيره من اسم أو فعل. فواجب عليه أن يكون عاملاً حقيقياً، في كل ما دل على معنى فيه. وهذا التثبيت للحرف بما بعده معنى يترتب عليه تثبيت لفظي، هو ما نسميه بالعمل.

وقد تناول التهانوري (ت ١١٥٨) هذا التوجه بالتفسير، فأوضحه بشكل آخر قائلاً: تعلقُ الفعل وما أشبهه بالاسم المتمكن سببٌ لثبوت وصف فيه، كالفاعلية والمفعولية والإضافة. وهذه معانٍ معقولة، تستدعي نصب علامة يُستدل بها عليها. فالإعراب الذي هو الرفع والنصب والجر دلائل عليها، والمعاني هي مقتضيات الإعراب، والكلمات التي تعلقها بالاسم المتمكن سببٌ لحدوث هذه المعاني هي العوامل<sup>(١)</sup>.

فالعامل إذاً هو اللفظ المسبب للإعراب، نتيجة تعلقه بما هو معرَّب

(١) كشف اصطلاحات الفنون (عامل). وانظر ص ٧٨ من أسرار النحو ٣١٩-٣٢٠ من

لفظاً أو تقديرأ أو محلاً. وذلك بعد تدخل الوظائف والمعاني التركيبية. وفي هذا شبهة مبدئي بما ذهب إليه بعض المتأخرين<sup>(١)</sup>، حين جعل العامل سبب الوظائف المعتورة للألفاظ، والوظائف سبباً للعلامات. فالعامل هنا بعيد مرتبتين عن الإعراب، إذ الفاعلية والمفعولية والإضافة معانٍ تسببها عوامل لفظية أو معنوية، فتكون وظائف تستدعي نصب علامات عليها، ليحصل الإعراب. وأنت ترى العامل اللفظي أو المعنوي، في هذه التوجهات، هو ما به يحصل المعنى الطالب للإعراب.

ولعله يجوز لنا أن نطلق، على هذه النزعة، اسم النظرية السببية، لما تعتمد من السبب المركب، في أسلوب مجازي معقد. فالعامل هنا لا يقوم هو نفسه بالعمل، وإنما يوسط ما يفعل ذلك، كما نقول: بنى المهندس مسجداً، وأحرق المعتصم عثوريةً، وفتح عمرُ بلاد الشام. فنسبة هذه الأفعال ههنا مجازية، والعاملون الحقيقيون هم غير من نسبت إليهم.

وعلى هذا أيضاً ما يفعله الإنسان، من فتح بالفتاح، وكسر بالمطرقة، وحصد بالمنجل، ويرد بالمبرد. فالفاعل الحقيقي هو هذه الآلات، وإن أروهم التعبير عن ذلك أنه الإنسان. ولِمَ لا يسه الآلة المعنى الحقيقي للفاعلية، كانت على صيغة مبالغة اسم الفاعل، نحو: نحز ونحز ونحصد ونمقص، وملعقة ومسطرة ومِكْوَاة، ومِنشار ومِقراض وميزان، وناعورة وطاحونة وناقورة، وجَرَار وبرَاد وصدَام، وسَماعة وعَصارة وغَسَّالة، أو على صيغة اسم الفاعل نفسه، مثل: هائف وحاجب وكاهل، وناقذة وساقية ورافعة، ومولّد ومحرّك ومحوّل، ومسجّلة ومكبّرة ومدخّرة.

(١) حاشية الصبان ١: ٤٧ وأسرار النحر من ٧٧-٧٨ والنحر الوالي ١: ٧٤.

وليشل هذه الملابس العملية أيضاً، صار يطلق على الإنسان نظير: طالب وعامل وعالم، ومعلم ومدير وممرض ومهندس، وحقار وجراح ودقان، ومعمار وقسيس. وكذلك ما أطلق على غير الإنسان، من مثل: قارب وحائط، وزارية وراوية، ومصيبة ومشكلة. فقد صارت هذه الصفات أسماء ذواتٍ بالغلبة مجازاً، والأصل فيها ملابسة الأعمال مباشرة أو بالوساطة.

ومع هذا كله، فإن هذه التوجهات السببية لا تسوّغ استقرار نظرية التعليق، لأنها لا تشمل أيضاً جميع صور الإعراب بالتفسير الكامل. فالفعل المضارع يُنصب في النفي بـ «لن»، ويُجزم في النفي بـ «لم» و«لما»، وهو يُجزم أيضاً في الشرط بـ «إن» وأخواتها، ويبقى على رفعه في الشرط بـ «إذا» وأخواتها.

والاسم يُنصب ويُرفع بـ «إن» وأخواتها، ثم يستقل بدخول «ما» عليها. وهو يُنصب بالفعل مفعولاً لأجله، ويجر بالحرف لهذا المعنى نفسه.

ثم إن المصدر الذي هو أصل في الاستقلال المعنوي يُنصب المفاعيل، ويرفع الفاعل ونائبه، وتعلق به أشباه الجمل. فكيف يكون دالاً على معنى في نفسه، ثم يحتاج إلى تثبيت بما يُتمّ معناه؟

#### ٤- النظرية الصوتية

لقد تابع بعض الدارسين المعاصرين مسيرة ابن مضاء، في ثورته على العامل اللفظي أو المعنوي، وأضافوا إليها تسفيهاً لأحلام القائلين به،

مع أدلة كثيرة بتعذر حصرها في هذا المقام، ثم نسبوا<sup>(١)</sup> إلى الخليل بن أحمد أنه أول حامل للواء هذه الثورة، حين جعل حركات أواخر المفردات وسيلة للتوصل إلى تيسير النطق بالكلام، لا علاماتٍ لمعانٍ أو وظائفٍ تعبيريةٍ أو أثرٍ إعرابي.

وقد كان ما اعتمدوه في نسبتهم هذه قول سيويه: «وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليُوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن الذي لازيادة فيه. فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو. فكل واحدة شيء مما ذكرت لك»<sup>(٢)</sup>.

وإذا رجعت أنت إلى هذا النص، في سياقه ودلالته، تبين لك غير ما فهم منه هؤلاء. فقد رواه سيويه في «باب حروف البدل»، وأورد بعده «باب ما بَنَتْ العربُ من الأسماء والصفات»، الأمر الذي يُشعر أنه معروض في موضوعات صرفية صوتية، بعيدة عن المقاصد الإعرابية.

يرجع هذه النتيجة أن السيرافي (ت ٣٦٨) علق عليه في شرحه للكتاب، بما يحصره في بُنية الكلمة، ويخص به زارية الصيغ. قال

(١) من أسرار اللغة ص ٢٣٧ ومدرسة الكوفة ص ٢٤٤ وأبحاث في اللغة ص ٩٨ ودراسات في الإعراب ص ٢٧-٢٨ والإعراب سنة العربية النصحي ص ٢٤ و٢٦ و٦١ و٧٠ ونهارس كتاب سيويه ص ١٠٠-١٠٢.

(٢) الكتاب ٢: ٣١٥.

السيرافي<sup>(١)</sup>: «يعني أن الفتحة تزداد على الحرف، ومخرجها من مخرج الألف. وكذلك الكسرة من الياء، والضمّة من مخرج الواو».

وما يؤكد زعمنا، ويقطع الشك باليقين، أن الخليل هنا تعرّض للفتحة والكسرة والضمّة، وهي حركات بناء لا إعراب، ولو قصد الثانية للذكر النصب والجر والرفع. ثم لقد نص على بناء الباكن، ويّين أنه أصل الحروف قبل دخولها في صياغة المفرد، حيث تلحقها تلك الحركات، ليتمكن الإنسان من وصل الأحرف بعضها ببعض، ويتيسر له النطق بالمفردات. وهذا عامّ لحروف الكلمة كلها، لا خاصّ بآخر الكلمة المبنية، كما ادعى أحد المعاصرين<sup>(٢)</sup>.

ثم إن قول سيبويه «زعم الخليل» يضعف جانباً من إطلاق ما ذهب إليه الخليل، ويجعله مرجوحاً في بعض أبعاده. ذلك لأن الحركات في بنية الكلمة، مع أنها تيسر النطق وتمكن من وصل الأحرف في اللفظ، كثيراً ما تكون أيضاً لِمَعَانٍ لغوية وصرفية، كالذي تراه في صيغ: فَعُلَ وفُعِلَ ويُفَعَل، ويُفَعَّل في المغالبة والتعجب، وفي صيغ المبالغة والمشتقات وجمع التكسير والتصغير والنسبة... ولولا ذلك لكانت هذه الحركات الداخلية المتباينة غير متعيّنة، ولجاز تبديلها بدون قيد، ولما أجاز أبو الأسود الدؤلي وبعض النحاة لأنفسهم أن يجعلوها حركات إعراب تدل على معانٍ مخصوصة، ويدخلوها فيما أسميناه إعراب البنية.

(١) انظر حاشية الكتاب ٢: ٣١٥ والسيرافي النحوي ص ٥٨٦-٥٨٧.

(٢) دراسات في الإعراب ص ٣٧-٣٨ و ٧٠.

## ٥- النظرية الخلافية

بالرغم من إجماع النحاة على الدلالة الإعرابية، للتغير الصوتي في أطراف المفردات المتعددة الوظائف داخل التركيب، فإننا نسمع عن أحد تلاميذ سيويه، وهو قطرب (ت ٢٠٦)، أنه اعترض تلك الدلالة، بل أنكرها وسقته الإجماع عليها. ولذلك حاول تفسير التغيرات الصوتية تفسيراً، قوامه أن الحركات وُضعت لتخالف أصل السكون الملازم للوقف، معاقبةً بين التحريك والتسكين، وبغية الاعتدال في أداء التركيب. والظاهر أن هذه المقولات لقطرب لاصلة لها بالنظرية الصوتية، خلافاً لمن ادّعوا العلاقة بينهما، وإن كان من الجائز أن يكون قطرب قد فهم المقولة المتقدمة للخليل فهماً ظاهرياً، شجعه على ما ذهب إليه.

نقطرب هنا يصرح أن تلون أواخر المفردات في التركيب<sup>(١)</sup> ليس لدلالة على وظائف أو معان، بل لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون، ولو جعل العرب الوصل بالسكون أيضاً لالتبس الوقف بالإدراج، وتعثر النطق عند وصل الكلام. فلما تيسر لهم التحريك في الإدراج جعلوا الحركات معاقبة للإسكان، ومساعدة على اعتدال الكلام وسهولة إنجازهِ وأدائه.

وقد استدل على تحقيق مقولته وإبطال مذهب الجمهور، بمرور أسماء متفقة الإعراب ومختلفة المعنى نحو: إنَّ زَيْداً أَخوك، ولعلَّ زَيْداً أَخوك،

(١) الإيضاح في علل النحر ص ٧٠-٧١ والبيان عن مذاهب النحويين ص ١٥٦-١٥٩

والأشياء والنظائر ١: ٧٨-٧٩.

وكانَ زيداً أخوك. وفي مقابل هذا ترد أسماء مختلفة الإعراب ومتفقة المعاني، مثل قولك: ما زيد قائماً أو ما زيد قائم، وما رأيته منذ يومين أو منذ يومان، ولا مالٌ عندك أو لا مالَ عندك، وما في الدار أحدٌ<sup>(١)</sup> إلا زيدٌ أو إلا زيداً، وزيدٌ قائمٌ أو إنَّ زيداً قائمٌ، وليس زيدٌ بجانٍ ولا بخيلٍ أو بجانٍ ولا بخيلاً، و﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>، أو ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ قرئ نصباً ورفعاً.

ثم خلاص من هذا إلى القول: لو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه، ولا يزول إلا بزراله. وقد استجاب لهذه المقولات بعض المستشرقين، وظاهرهم عليها بعض تلاميذهم من الدارسين العرب<sup>(٣)</sup>، فدافعوا عنها يدعمونها بالأدلة، ثم استغلها فريق للطعن في إعراب القرآن الكريم، مع أنها قائمة على افتراضات عقلية قوامها المغالطة.

فلو كانت دوافع الإعراب هي جعل الوصل مخالفاً للوقف، وتيسير النطق بالكلام المتصل، لاقتصرت تلك التغيرات على التعبير الملفوظ وغابت في المكتوب منه، ولشمل التحريك جميع مفردات العربية، ولكان

(١) في مطبوعة الإيضاح: أحداً.

(٢) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

(٣) من أسرار اللغة ص ١٤٢ و ١٥٨ و ٢٢٥-٢٢٨ وفي أصول اللغة ص ٤٧-٥٤ ونصول في فقه اللغة ص ٣٧٢-٣٨٥ وظاهرة الإعراب ص ١٩٦-٢٤٤. وكان من ذلك ظهور الدعوة إلى العامة بإلغاء حركات الإعراب. انظر كلمات لقاسم أمين ص ١٢-١٣ وتاريخ الدعوة إلى العامة ص ٣١.

في الملفوظ أيضاً يُجزئ العربي حركة واحدة لجميع الكلمات. ولا يدفع هذا ما اعتُذر به لطلب التوسع<sup>(١)</sup> في التكلم بتلوين الحركات، إذ لو صح الاعتذار بهذا لجاز الرفع والنصب والجر، في الفاعل والمفعول والمضاف إليه، دون تخصيص والتزام، ولم يكن في المقاصد فساد إذ ذاك.

فإن قيل: هذه جماهير العرب الآن، من العوام وبعض المثقفين، تقرأ النص الواحد بصور مختلفة من الإعراب مختلفة مضطربة، وتفهم المراد، فلا يكون ما تزعمون من فساد للمقاصد والمرامي. قلنا: لعل قطرباً استقى نظريته تلك من بيئة مستعربة أو مستعجمة في عصره، ثم طاب له أن ينقلها إلى لغة القرآن والأدب والعلم، فكان لديه قياس مع الفارق لا يقره ذو جنان. فالعوام وأمثالهم، من المثقفين والمستعربين والمستعجمين، حين يقرؤون تلك القراءات المذكورة، يتولد لديهم صور مضطربة مسطحة من الفهم، تبعاً لمستويات القراءة والمعرفة والخبرة والتجارب. ولن يستطيع أحد الادعاء أنهم على مستوى واحد من الاستفادة والاستيعاب.

وما ذكره ابن خلدون (ت ٨٠٨) عن العامة في عهده، وتعويضها من الحركات الإعرابية رسائل تعبيرية أخرى<sup>(٢)</sup>، ليس حجة على ما ذهبنا إليه، لأنه يخص العامة وحدها في كل مكان وزمان، وقد احتفظت برتب ثابتة للوظائف النحوية، وضحت بطواعية الفصحى، وقدراتها البيانية

(١) الإيضاح ص ٧١.

(٢) المقدمة ص ١٢٧١-١٢٧٢.



البلاغية، لتستوعب المعاني اليومية والسوقية، دون أن تتناول إلى لغة الفن والعلم، بلة لغة القرآن الكريم.

وكان هذه المسألة كانت تُطرح قديماً في وجوه النحويين، حتى رأينا الزجاجي يعرض لها، ويبين سقوط الاحتجاج بها<sup>(١)</sup>. فقد أوردها على لسان قائل في عصره، ثم ذكر أن معاني الكلام لا تُفهم على حقيقتها إلا بتوفية الإعراب، وأن فهم العامة محصور فيما هو متعارف مألوف بالدرية<sup>(٢)</sup>. حتى إنه لو أراد متكلم إيضاح معنى ملتبس بغيره، من دون تفهيمه بالإعراب، لم يمكنه ذلك.

ثم لو صح أن الغاية من الإعراب هي سرعة الإدراج لما كان للجزم بالسكون والبناء عليه مسوغ في الكلام، إذ هو معرقل ومناقض لما فُرض أن الإعراب وُضع له، ولكان من الأولى أن تتساق حركات أواخر الكلم بما يناسب لفظ ما بعدها من الأوائل. أعني أن تلتفتفه فتسقط همزته إن وجدت، ويبقى بعضها على سكونه، أو يدغم فيما بعده، ويحرك الباقي بالكسر أو غيره تبعاً للأصول التصويفية المزعّية، كما يحدث في اللغات الأعجمية الخالية من الإعراب.

ففي الإنكليزية مثلاً ترى الجملة:

كيف أنت: how are you تلفظ بالقطع: هُوَ أَرْيُو، وبالوصل: هَوَ رْيُو؟

(١) الإيضاح ص ٩٥-٩٦ .

(٢) في المطبوعة: «(بالدرية)». وانظر ص ١٥ منها.

وأنا رجل : I am a man تلفظ بالقطع : أي أم ! مَنْ ، وبالوصل : أَيْمَنْ .

وهذا صديق قديم : this is an old friend تلفظ بالقطع : دِسْ إزْ أَنْ أَلْدُ فِرُنْدُ ، وبالوصل : دِ سِرْ نُلْدِ فِرُنْدُ .

وفي اللغة الفرنسية أيضاً تجد الجملة :

هي كلمة جامدة : il est un mot invariable تلفظ بالقطع : إل إي أَنْ مُوْ أَنْفَرِيَانْلُ ، وبالوصل : إِلْمُتَنْفَرِيَانْلُ .

ونصطف للدرس هنا : nous classons ici تلفظ بالقطع : نُوْ كَلْسُنْ إِمِيْ ، وبالوصل : نُكَلْسُنِيْ .

وبعدُ فما الدليل على أن السكون فيه تبطنةٌ، للقظ الوصل بين المفردات؟ إننا نرى اللهجات المحلية في أقطار العرب كلها، حتى في الغناء والتشيل وكثير من الأناشيد، قائمة على تسكين بعض الأحرف وأواخر الكلمات عامة، مع أنها وسيلة التواصل السريع في جميع مستويات العمل والأداء للحياة اليومية، وعلى الرغم من أن اللهجات هذه أميل إلى الخفة من الفصحى كما يقول اللغويون، وأكثر تبعاً لها واقتناصاً. وها هو ذا جمهور اللغات الأعجمية يعتمد السكون في عديد من خواتيم مفرداته المستقلة، ولا يفرض فيه إلا قليلاً.

وأخيراً تجد قطرباً، إذا استعرضت الأمثلة التي اعتمدها لنقض ارتباط المعاني بالأعريب، بعيداً عن الدقة والصواب. فالجمل «إنَّ زيداَ أخرك،

ولعلّ زيداً أخوك، وكأنّ زيداً أخوك» يبدو فيها الاختلاف المعنوي مع نصب الأوائل ورفع الثواني، لأن المراد بالأولى التوكيد، وبالثانية الرجاء، وبالثالثة الظن. نعم هذا صحيح لا غبار عليه.

إلا أنك إذا نظرت إليها من الزاوية النحوية، وعصت المعاني التي تتضمنها كل من الثلاث، رأيتها ترتد إلى بؤرة واحدة. أعني أن المصدر المصوغ منه الخبر في المعنى هو مفعول به لفعل فاعله المتكلم: أؤكد أخوة زيد لك، وأتوقع أخوة زيد لك، وأظنّ أخوة زيد لك. وهذه الوحدة الوظيفية النحوية الإعرابية هي التي جعلت «إنّ» وأخواتها في باب واحد من شبه الفعل، لنصب الاسم ورفع الخبر، وحملت النحاة من عهد الإمام عليّ بن أبي طالب، على تمييزها من سائر الأدوات في الوظائف والعلاقات.

والفرق بين قولك: «ما رأيت منذ يومين»، و«ما رأيت منذ يومان»، أن المراد بالمُدّة الأولى زمن محدود بيومين كاملين، لأن «منذ» فيها هي بمعنى «من» و«إلى»، أي: لا ابتداء الغاية وانتهائها معاً<sup>(١)</sup>. والمراد بالمُدّة الثانية أن ما بيني وبين لقائه يومان، وقد يكون الفراق أقل منهما أو أكثر، ثلاثة أو أربعة أو عشرة من الأيام، لأن «منذ» فيها هي بمعنى «من» وحدها، أي: لا ابتداء الغاية، وأنت أخبرت عن بعض ما مضى دون تحديد دقيق<sup>(٢)</sup>.

(١) التصريح على التوضيح ٢: ١٧-١٨. وانظر الباب في علل البناء والإعراب ١: ٣٧١. وصواب اسمه: الباب في علل النحر.

(٢) حاشية الشيخ يس على التصريح ٢: ١٩-٢٠.

والخلاف بين القولين: «لا مالَ عندك»، و«لا مالَ عندك»، أن المقصود بالأول مجرد نفي وجود المال، وبالثاني التبرئة والتنصيص على نفي وجود جنس المال إطلاقاً، وليس مجردُ النفي كالنفي المؤكّد الذي استُقصيَ فيه آخر ما يمكن من المبالغة والتوكيد. ولهذا جُعِلت «لا» الأولى من المشبهات بـ«ليس» أي: للنفي المجرد، وجعلت «لا» الثانية من المشبهات بـ«إنّ»، لِمَا بينهما من معنى التوكيد سلباً وإيجاباً<sup>(١)</sup>.

وشبيه بهذا ما تراه من الفارق الدلالي في نحو قولك: محمداً أظنّ مسافراً، ومحمداً - أظنّ - مسافراً. ففي الجملة الأولى أعملتَ الفعل، لأنك بنيت الكلام على الشك. أما الجملة الثانية فقد ابتدأتها على يقين من سفر زيد، ثم أدركك الشك في ذلك، فعبّرت عنه بالفعل متوسطاً ملغى. وقد يدركك الشك بعد إيراد الاسمين، فتقول: محمداً مسافراً أظنّ، كما تقول: زيدٌ ناجحٌ بلغني، وأنت كنت في يقين قبل التردد<sup>(٢)</sup>.

واختلاف الجملتين: «ما في الدار أحدٌ إلا زيداً» و«ما في الدار أحدٌ إلا زيدٌ» قريب، مما لسنّاه في عبارتي «لا مال». ذلك لأن كلمة «أحد» في الجملة الأولى جوهرية حضورها، وإسقاطها يخلّ بالعبرة والمراد، ويقطع الصلة بين المستثنى والمستثنى منه. هذا في حين أن حضورها في الثانية هو عرضي لفظي، فيجوز حذفها مع احتفاظ الجملة بصحتها ودالاتها على الحصر.

ولذا فقد زعم بعض النحاة أن كل حصر، من هذا النوع الخالي من المستثنى منه، لا بد له أن يقدر فيه مستثنى منه محذوف. فالتوكيد في الثانية

(١) التصريح على التوضيح ١: ٢٣٥.

(٢) الكتاب ١: ٦١.

- وهو مفقود في الأولى - مصدره أن «زيد» بدل من «أحد»، وللبدل حق تكرار التعبير الذي قبله فعلاً كان أو غيره، وفي هذا التكرير المقدر يتحقق التركيد. وإلا فالمُبْدَل هنا هو المقصود بالحكم، وإنما جيء بالنفي وإلا «له وحده»، فكان ما زعمناه من الحصر.

ولعلك واجد في تنعيم أداء الجملتين ما يثبت هذا الفرق. فانت تقرأ الأولى متواصلة:

ما في الدار أحدٌ إلا زيداً.

وتقرأ الثانية بوقفة لطيفة بعد «أحد»:

ما في الدار أحدٌ - إلا زيد.

وفي هذا ما يعبر عن الاتصال المعنوي بين «زيداً» و«أحد»، والاتصال بين «زيد» و«أحد»، وعن تكرار التركيب في البدل وعدمه في الاستثناء، وعما ذكره القدماء من أن الاستثناء هو نصب لتمام الكلام، والمُبْدَل مقصود بالحكم غالباً دون المبدل منه.

وقد عَبَّرَ سيبويه<sup>(١)</sup> عن مثل هذا بشكل آخر، حين وقف عند قولهم: ما أنا أحدٌ إلا زيداً، فذكر أن النصب ههنا هو على الانقطاع الإعرابي مما عمل الفعل في «أحد»، بدليل أنه على معنى: ولكن زيداً، ولا أعني زيداً. وهذا يعني أن «إلا» عملت فيه النصب. ولقد أتبع هذا الحكم بنحو قول بني تميم: لا أحدٌ فيها إلا حمارٌ. وأوضح أنهم أرادوا: ليس فيها إلا

(١) نفس المصدر ١: ٣٦٣-٣٦٤.

حمارٌ. وإنما ورد «أحد» في العبارة تأكيداً، ليعلم أنه ليس فيها آدمي، ثم كان الإبدال. فكانهم قالوا: ليس فيها إلا حمارٌ.

وقريب من هذا الميدان ما تراه، بين القراءتين: «إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» و«إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ». فالتركيب في الأولى جملة واحدة، جاءت فيه «كل» لتوكيد استغراق جنس ما قبلها، وهو في الثانية جملتان: كبرى تشمل جميع الكلمات، وصغرى هي «كله لله» في محل رفع خبر لـ «إِنَّ»، وكل: لاستغراق أفراد المعرفة التي بعدها. ولفظ «كله» في الأولى شبيه بلفظ «أحد» الذي جاز الاستغناء عنه افتراضاً. ولو ورد مثله في غير القرآن الكريم لجاز فيه ذلك صناعة، بينما هو في الثانية جوهرى الحضور لأنه عمدة في الجملة الصغرى. ثم يكون في التلاوة اتصال تام بين مفردات القراءة الأولى، وتكون سكتة لطيفة بعد «الأمر» في الثانية. وهذا يعني أن الإخبار صار بجملتين، فهو أوكد من جملة واحدة، وإن خلا مما اصطلاح عليه النحويون، لأنه توكيد لغوي بالتعدد والاستطالة.

فإن قلت: التعبير بالبدلية فيه تكرار يحقق التوكيد أيضاً، كما ذكرتم في المسألة المتقدمة. قيل: الفرق واضح بين الحالتين، مع اشتراكهما في معنى التوكيد. فالتكرار في قراءة الرفع هنا صريح بالجملة الصغرى، مبتدأ وخبراً، وهو في البديل مقدر افتراضاً، يجوز إغفاله وقد لا يلاحظه كثير من الناس. هذا في حين أن حذف ركن من الجملة الصغرى المذكورة يخل بالتركيب وبالمعنى المراد.

أما نحو الجملتين: زيد قائم، وإن زيدا قائم، فقد جابه الفيلسوف الكندي به أبا العباس ثعلباً (ت ٢٩١)، بدعوى أن المعنى واحد في الجملتين، والإعراب مختلف لوجود الحشر والتكثير في الثانية. وقد تصدى لاستشكال الفيلسوف هذا أبو العباس<sup>(١)</sup>، وقرر ما تناقلته صحف التاريخ بالإكبار.

وذلك ما بين به من أن مراد الجملة الأولى هو مجرد الإخبار عن القيام، ومقصّد الثانية هو الإجابة عن سؤال سائل يطلب تثبيت الخبر، وأنه لو قلت: إن زيدا قائم، كنت تجيب من ينكر ذلك القيام. فهاتان الجملتان المؤكدتان لا تردان إلا في جواب مذكور أو مقدر، بخلاف الأولى التي تصدر التعبير دون سابق كلام.

وأما قولك: «ليس زيد مجبان ولا بخيل» أو «ولا بخيلاً»، فإن العطف في الأول يحمل معه أصداء التوكيد للنفي بما جلبه من الجر بالباء الزائدة، وهو في الثاني خال من ذلك التوكيد، لثقلته من لفظ الجر وتحمله لفظ النصب محلاً بالخبرية. وإنك لو اجد فرقاً ظاهراً بين خبر «ليس»، إذا كان مجروراً بالباء، وبينه إذا كان خلواً منها. ذلك أن زيادة الباء تفيد الجملة تركيداً، حتى كأنها كررت لفظاً<sup>(٢)</sup>. وقد جاءت زيادتها أيضاً لمقابلة زيادة اللام في خبر «إن»، إذ جملة «ليس» مع الباء هي لنفي ما تتضمنه «إن» مع اللام. وعلى هذا يكون للعطف بالجر شيء مما يتلبس به الخبر المجرور.

(١) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٢٢ ودلائل الإعجاز ص ٢١٩ ومفتاح العلوم ص ١٧١. وزعم بعض المعاصرين أن أبا العباس هنا هو المبرد.

(٢) انظر الباب ١: ٢٠٥ وشرح المنفصل ٨: ٥٩.

أضف إلى ما ذكرت أن دخول الباء على الخبر يُوهِمُ، في أول وهلة، أن الخبر هو غير اسم «ليس» في المعنى، ثم يتضح أنهما شيء واحد. وفي هذا إيهام وبيان، لا يردان إذا خلت الجملة من الباء. وتوضح لك هذه المسألة في مثل قولنا: لقيت بأخيك رجلاً فاضلاً. فإن قولنا «رجلاً فاضلاً»، وإن أردنا به أخاك، خرج في معرض يُتصوّر منه أنه إنسان آخر. حتى كأنه قيل: لقيت بـلقائي لأخيك آخر، هو رجل فاضل<sup>(١)</sup>. وفي هذا الإيهام مع البيان الضمني ما يفيد تأكيداً ومبالغة. وكل ذلك منسحب على الجورور بالمعطف في قولك: ولا بخيل.

وأما نحو: «مازید قائماً» و«مازید قائم» فهو في معنى واحد بلا شك. إلا أنه عبّر عنه بلهجتين لجماعتين مختلفتين. وليس من الضروري أن تماثل اللهجات، في التعبير عن المعنى الواحد دائماً في لغة معينة.

وبعد ذلك التحليل للأمثلة التي اعتمدها قطرب، وبيان ما تحمله من خلاقات معنوية ظاهرة أو دقيقة، يبدو لنا صاحبها إما غافلاً عما كشفناه، وإما مدنوفاً بحماسة لِمَا توهم، يتجاهل الوقائع اللغوية المقررة، ويغالط نفسه والآخرين في البحث والجدال. ثم إنه قد روي عنه مراراً تعيين وظائف إعرابية للعلامات المشهورة. على أن هذا كله لا ينفي صحة نظريته في غير الظواهر الإعرابية، كالتقاء الساكنين في كلمة واحدة أو في كلمتين<sup>(٢)</sup>...

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٩٠-٩١. ولا بد من ملاحظة أن الباء في هذا المثال هي غير زائدة أيضاً.

(٢) انظر ص ١٠١-١١٠ من أبحاث في اللغة.



## ٦- النظرية الإنسانية

في التراث النحوي أيضاً، ترى من العبارات ما ينسب العمل الإعرابي إلى الإنسان، بتلميح أو تصريح. فالعرب<sup>(١)</sup> قد يضمرون في الفعل الهاء فيرفعون المفعول به في المعنى، نحو: زيدٌ ضربْتُ. وإذا قلت: مررت بزيد الرجل الصالح، نصبت ما بعد «زيد» على المدح. وإن شئت جعلته بدلاً من «زيد» فخفضته، وإن شئت رفعت على إضمار: هو. والشعراء والمتحدثون ينصبون ويرفعون ويجزّون ويجزمون ما في عباراتهم، تبعاً للضوابط والأصول لفظاً أو تقديراً.

وعندما عرض خلف الأحمر للحرف جاء لمعنى، قال: إنه الأداة التي بها<sup>(٢)</sup> ترفع وتنصب وتخفّض الاسم وتجزم الفعل. تقول<sup>(٣)</sup>: إنَّ زيداً قائمٌ. نصبت «زيداً» لأنه اسم «إنَّ»، ورفعت «قائمٌ» لأنه خبر «إنَّ». و«مَنْذا» تخفّض بها كل شيء مما أنت فيه وما قد مضى، و«مَنْذا» تخفّض بها ما أنت فيه وترفع بها ما مضى. وإذا أردت بـ «كم» أن تأتي بمعنى «مِنْ»<sup>(٤)</sup> نصبت ما يأتي بعدها...

ونظير هذا كثير جداً في كتاب سيبويه، وغيره من مصنفات التراث

(١) الجمل في النحر للخليل بن أحمد ص ٣٦ و ٦١ و ٣٧ و ٢٢٥.

(٢) نصوص نحوية ص ١٢. وقد سقط «بها» من مطبعة «(مقدمة في النحر)»، تغير مقصد المؤلف.

(٣) نصوص نحوية ص ١٩ و ٢٥-٢٦ و ٣٠.

(٤) أي: بتقدير معنى «مِنْ» بعدها.

النحوي، يتعذر حصره أو الإشارة إليه. وهذا القراء يقول، في إعراب نصوص قرآنية<sup>(١)</sup>: «السلام» على معنيين: إذا أردت به الكلام نصبتَه، وإذا قدرت معه «عليكم» رفعتَه، وقال بعض الشعراء... فنصب، وإن أضفت إلى المعرفة شيئاً رفعتَ فقلت: نَعَمْ سائِسُ الخيلِ زيْدًا!

تلك مقولات تحمّل المتكلم عمل الإعراب، وتتنيط به القيام بتغيير العلامات واستبدال بعضها ببعض. ولما اشتدت موجة الاعتزال، وتغلغلت في مطاوي البحث العلمي، ظهرت لها آثار في ميدان النحو كسائر العلوم الإسلامية. ومن أصداء تلك الآثار ما نُسب إلى الإنسان، من خلق أفعاله بعيداً عن القدر، فكان أن انسحب هذا على معتزلة النحاة، فصاغوا نظرية تفسر العامل تفسيراً إنسانياً صرفاً.

وقد مثل ابن جني (ت ٣٩٢) هذه النزعة، حين عرض للبحث في العامل، مع أنه كان يقرر دائماً النظرية اللفظية، ويردها في النهاية إلى التوجه المعنوي<sup>(٢)</sup>. فعندما عرض للعوامل اللفظية والمعنوية<sup>(٣)</sup>، نص على ما يلي: «وإنما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي، ليُبرك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه... وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به... فأما في الحقيقة ومحصول

(١) معاني القرآن ١: ٤٠ و ٥٥ و ٥٧. والسلام هو في الآية ٦٩ من سورة هود.

(٢) الخصائص ١: ١٠٣-١٠٤ و ١١٠-١١١ و ٣٣٧ و ٢: ٣٨٥.

(٣) المصدر السابق ١: ١٠٩-١١١. وانظر ص ٤٠-٤٢ من إحياء النحو وص ١٣٨ من كتاب في أصول النحو وص ٢٠٠ من أصول النحو العربي وص ٣١٩ من ظاهرة الإعراب. وزعم أحد أمين أن ابن جني فهم، بمنكره هذه، قضية العامل. ظهر الإسلام ٢: ١١٧-١١٨.

الحديث فالعمل، من الرفع والنصب والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لالشيء غيره».

فهو ينفي هنا أن يكون للصوت أو للمعنى عمل البتة، ويردّ ذلك كله إلى المتكلم وحده. وقد ظاهره في هذا بعض النحاة، كالرضي الأستراباذي (ت ٦٨٦)، إذ صرح بقوله: «المُوجد للمعاني وعلاماتها هو المتكلم. ولكن النحاة جعلوا الآلة كالموجدة لها. ولذا سميت عوامل»<sup>(١)</sup>. ولما تعرض أبو حيان النحوي (ت ٧٤٥) للمسئني ذكر أن «إلا» ليست هي التي تُسئني، ثم قال: إنما يُسئني بها، والمسئني هو المتكلم<sup>(٢)</sup>.

ولعلك تتلمس في هذه النظرية، إذا أخذت كامل أبعادها، تطرفاً في تمثيل نزعة الاعتزال، وتحقيقاً للقدويّة التي تجعل للإنسان حرية العمل مطلقة، وتردّ إليها ظواهر الأحداث في جميع مجالات الحياة، حتى التعبير اللغوي المقنّن. ونحن إذا أطلقنا لها العقال، وفهمناها فهماً ظاهرياً، وسائرناها إلى آخر مدى ترمي إليه، رأينا الإنسان قد تملك زمام اللغة وتسلط على توجيهها والتصرف فيها بإرادته وأشواقه وصبواته، فكان في العربية مثلاً صور ونماذج مختلفة متناقضة من الأشكال اللغوية، كالذي ترى بعضه في اللهجات المحلية من الوطن العربي.

بل يحق لنا أن نتجاوز تلك الصور اللهجية، لنصير إلى رطانات فردية،

(١) شرح الكافية ١: ١٨-٢٥ و ٧٨. وانظر مفتاح العلوم ص ٧٦.

(٢) منهج السالك ص ٣٠.

تمثل توجهات كل إنسان على حدة، وتعبر عن نزعاته في التقعيد والتأصيل والتفريع، على غرار ما يتبدى من تمايز، في سلوك الأفراد ومواقفهم وعواطفهم وتطلعاتهم. وهذا أمر يرفضه الواقع اللغوي، ويتناقى الطبيعة الاجتماعية للغات<sup>(١)</sup>.

نعم قد يكون في هذا تمثيل لصور العيش الطفولي، أو الافتعال الحزلي بين أفراد بعض الأسر والمجموعات، بصياغة ما لا يعرف في التعبير من إنجازات الرطانات المحلية، وهو أمر آني يولد طرْحاً، فقد يكتب له العيش لحظات أو أياماً، لكنه محدود المدى ويحمل في طياته أسباب اضمحلاله السريع. أما اللغة، والعربية الفصحى منها بخاصة، فإنها بعيدة جداً عن الفردية المطلقة، ولا تعيش إلا في بيئة جماعية، وتمتد مع الزمان والمكان من غير حدود. ولذلك تتسم بالمحافظة والوحدة والمعيارية، مع الاستمرار في التوسع والاستيعاب لحاجات الحياة.

فنسبة العمل الصوتي إلى الفرد وحده، بدون وسائل محددة وضوابط وقوانين للإجراء والتنفيذ، تعني توزيع النشاط اللغوي تبعاً للحاجة الشخصية والميول الفردية والقدرات الخاصة. فإذا الكلام بلا نظام ولا أحكام، وإذا اللغة مشتتة متفرقة، لا تنقل فكراً أو شعوراً أو تجربة، ولا تصل ما بين أفراد الجماعة، فتفقد شخصيتها وخصائصها والغايات التي وُلدت لها في الكون. فإن أريد لهذه النسبة أن تفسر ظواهر اللغة، بالشكل

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١. وانظر اللغة والنعر بين القديم والحديث

ص ١٨٩-١٩١ ربي أصول اللغة والنعر ص ١٣٨.

الحيوي الملائم لطبيعتها، كان لابد لها من ربط بمجتمع ينظم ويقتن،  
ورسائل تحقق وتنفذ.

والراجع أن هذه النظرية تتوهم العامل عنصراً مادياً فاعلاً، ينتج  
الأحداث والأصوات. ولذا تنسب الإعراب إلى الفرد، يكتفه بجهاز  
النطق ويصدره مع الكلام. والحق أن العوامل في كثير من العلوم الطبيعية  
والتجريبية ليست كلها فاعلة، وإنما غالبيتها عناصر مساعدة، تصحب  
الظواهر وترافق حدوثها، كشروط لا كأسباب وعلل. هذا في العلوم  
المادية الصرف. فما قولك في العلوم الإنسانية، واللغة منها بخاصة؟

يضاف إلى هذا كله أن أرباب هذه النظرية لم يلتزموها، في كل ما صدر  
عنهم من الدراسات اللغوية، بل صرحوا بتزعزعات مختلفة، تمثل النظرية  
اللفظية أو المعنوية، كما ذكرت قبل. وهذا زعيمهم ابن جني مثلاً يرى أن  
العامل من الفعل هو ما فيه من الحدث، لا الفعل نفسه ولا المتكلم أيضاً.  
فقولك: ضربت زيداً، ليس العامل في الفاعل والمفعول منه نفس «ضرب»  
بـ، وإنما ثم حدث، كما يقول، هذه الأحرف دالة عليه، وهو العامل.  
وكذلك القتل والشم والإكرام... (١)

## ٧- النظرية الإلهية

يرى بعض العلماء أن اللغة توقيف من الله - سبحانه - علّم أبا البشر  
آدم من أصولها ما يحتاج إليه حينذاك، ثم علّم من أنبياء العرب ما شاء،

(١) الخصائص ٢: ٢٧٧.

حتى ختم ذلك بما آتاه محمداً ﷺ تماماً على ما أحسنه من اللغة المعروفة<sup>(١)</sup>. وقد يبالغون فيزعمون أن ما تعلمه آدم من ربه هو كل شيء في اللغات، أسماء وأفعالاً وحروفاً وتراكيب، حتى إنه عرف أسماء جميع أبنائه، وسائر المخلوقات ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup>.

لكأن هذا المذهب اللغوي صدر مناقسة لِمَا ولدته توجهات الاعتزال، من تحكيم واسع للعقل والإنسان، في قضايا اللغة ومائلها المتعددة، واستمر له سلطان على بعض العلماء والمفكرين. حتى إذا شب المذهب الظاهري في الأندلس، وانتشرت آثاره في العلوم الإسلامية، وجد له منفذاً على يد ابن مضاء القرطبي في موضوع ظواهر الإعراب، نصار له نظرية تناسب مشربه في التوقيف والجبر والانتقياد، إذ لا فاعل عند أهل الحق إلا الله - تعالى - وفعلُ جميع المخلوقات هو فعله وحده.

فهذه الأصوات الإعرابية ليست لعامل لفظي أو معنوي، وليس المتكلم هو صاحبها كما ادعت المعتزلة. بل هي، في مذهب أهل الحق، من فعل الله عز وجل. وإنما تُنسب إلى الإنسان مجازاً، كما تُنسب إليه سائر أفعاله الاختيارية<sup>(٣)</sup>. ذلك لأن المولى - سبحانه - هو الذي هيا للمتكلم إظهارها والنطق بها، ووجهه إلى تحقيقها وتنفيذ صورها في

(١) الصاحبي في فقه اللغة ص ٣١-٣٢.

(٢) تفسير الألوسي ١: ٣٥٧.

(٣) الرد على النحاة ص ٨٧ و ١٠٦. وانظر ص ١٥-١٧ من الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد. وزعم بعض الدارسين أن العامل عند ابن مضاء هو الإنسان.

الكلام. فالعمليات اللغوية في الإعراب يجب أن تُنسب إلى الله، تعالى. ولذا جعلنا هذه النظرية إلهية<sup>(١)</sup>.

وبناء على هذا، استطاع ابن مضاء أن ينكر ضروب العوامل المذكورة بين النحاة، ويجرد الكلام من آثارها والاختلافات التي تكاثرت مع الأيام، ويضع مصطلحات جديدة تناسب مذهبه، هي: التعلُّق والمتعلِّق والمتعلِّق به<sup>(٢)</sup>. وكانت هذه تستخدم لدى النحاة - كما قال - في أشباه الجمل وارتباطها بالأحداث، فنقلها هو إلى ميادين الأصوات الإعرابية كلها، وحاول تطبيقها في نماذج التراكيب، ولا سيما بابا التنازع والاشتغال.

ونحن إذا أسقطنا على هذه النظرية أسلوب أصحابها الظاهري، ونسبنا إلى الله - عز وجل - العمل الإعرابي، ترتب على ذلك<sup>(٣)</sup> أن تكون ضوابط الإعراب ونماذجه في القبائل كلها واحدة، وتعذر على العربي أن يصدر عنه ما يخالف أخاه في لهجة أو لهجة. غير أنك ترى، في قواعد الكلام وأمثله، صوراً مختلفة بين قيس وتميم والحجازيين وهذيل وطيئ وأزد شنوءة وبلحارث... حتى في تلاوة القرآن الكريم ورواية الشعر.

ثم إذا سلمنا جدلاً، بما تقترحه هذه النظرية، وجب علينا أن ندع

(١) رأى بعض الباحثين أن تسمى ثوقية. وما ذهبنا إليه أقرب إلى تفكير ابن مضاء وتعبيره.

(٢) الرد على النحاة ص ٩٦-١٠٢. والظاهر أنه استقى هذه المصطلحات من رجال المعتزلة والأشعرية. انظر المسائل البصريات ص ٥٧٢-٥٧٦ و ٥٤٤ و ٦٦٦ ودلائل الإعجاز ص ٥٦ و ٤٦ و ٤٨ و ٢٠٧ و ٢٧٨.

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١. وما ذكرنا هنا فيه أيضاً تجاهل لما ترجحه النظرية الإلهية من وحدة لغوية في العالم كله.

البحث في الأسباب والعلل، للظواهر النحوية خاصة واللغوية عامة، بل انسحب ذلك أيضاً على جميع العلوم الطبيعية والتجريبية والاجتماعية والإنسانية، لأن السبب الأول في ظواهر هذا كله - بلا شك - هو الله تعالى. والنتيجة الظاهرية إذاً هي الانصراف عن دراسة العوامل القريبة والبعيدة، لأنها تعود في النهاية والبداية إلى هذه الحقيقة الثابتة الموحدة بين جميع ما في الوجود، من كائنات وحوادث وأعمال. ومادامت قد عُرفت وتحققت، فلا جدوى من البحث والمتابعة والاستقصاء.

نعم إن المولى - سبحانه - هو الذي خلق كل شيء بقدر، ووضع له نوااميس دقيقة متواصلة متعارضة. فإذا قام الإنسان بعمل أو فكر أو شعور أو خيال، فإنما يسير وفق هذه السبيل الإلهية، ويحقق قوانينها وما رسمته في الكون، من حقائق وظواهر وتجارب. بيد أن المولى أيضاً قد جعل بينه وبين الوقائع لكل شيء سبباً، وكرم الإنسان حين منحه قدرات الاختيار والإرادة والعمل القاصد.

فلا بد للمرء، إذا أراد تحقيق إنسانيته، أن يتابع إنجاز الأعمال بنفسه، ويواصل البحث والاستقراء والتجريب والافتراض والاختبار، حتى يصل إلى شيء قريب من الصواب في فهم الوجود، والتمكن من استغلاله، وتسخير العمل الكريم وعبادة الله حقاً. ولهذا ولغيره ذهبت مقولة ابن مضاء جفاء، وطويت في مسارب الزمن بين صفحات التاريخ، فلم تجد لها من يتقبلها أو يدعو لها قط. <sup>(١)</sup> بل إن صاحبها نفسه كان قد

(١) انظر إحياء النحر ص ٥٠ واللغة والنحر بين القديم والحديث ص ١٨٩-١٩٠.



وعد بيسطها وتحقيق أبعادها في كتاب، ولم يستطع أن يفعل ذلك، ليقدم شيئاً ذا بال يستحق الحياة.

## ٨- النظرية الاجتماعية

كانت الدراسة اللغوية في أوربة، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تنفرغ للمنهج التاريخي والمنهج المقارن، وتُغفل واقع اللغة كما هو في حياة الأمم. حتى إذا أطل القرن العشرون وانبثقت النزعات القومية، وسيطرت الدراسات الاجتماعية على كثير من العلوم، أصبحت تقودها نحو مقاصدها، وتزودها بالمناهج والأساليب والأهداف.

ومن ثَمَّ نشأت الفلسفة البنيوية وتسربت إلى التفكير العلمي، فكان لها في اللغة نصيب موفور، تطور مع الأيام واتخذ أشكالاً متوالية، من وصف مجرد يستبعد كل تحليل، إلى نزعة وظيفية تعول على ظروف المقال والسياق، فاتجاه تحويلي يرى أن اللغة الناجزة ذات مستويين: خارجي سطحي هو المبنى، وداخلي عميق هو المعنى. فالاهتمام ينصب على دراسة العلاقة بين هذين المستويين وبين النظام الأساسي لقوانين العميق منهما، قبل تحوله إلى صورة المبنى الخارجي. وقد صدر عن هذا ميلاد في التعبير يمثل بُنيتين أيضاً، هما: البنية الظاهرة، والبنية المقدرة، تأثراً بالدرس النحوي العربي القديم<sup>(١)</sup>.

(١) البنية ص ٧٤-٨٠ و ٩٤-١٠٠ والنحر الرصفي ص ١٩-٢٤ وقواعد تحويلية ص ٢١-٢٤ رص ص ١٥١-١٦١ من تحليل النص النحوي.

والناظم لهذه الأشكال المتعددة هو النظرة البنيوية إلى اللغة<sup>(١)</sup>. ذلك أن اللغة -كما ترى هذه النظرة- ظاهرة اجتماعية<sup>(٢)</sup> يؤسسها المجتمع، للرمز إلى عناصر معيشته وطرق سلوكه وتفكيره وأحاسيسه، ويحدد أساليبها ووسائل استعمالها. فالبحث فيها إذاً يجب أن يكون بدراسة لغة ما في بيئة وزمان محددين، دراسة وصفية بعيدة عن التصورات السابقة والتوجهات الذهنية أو الفلسفية.

وقد كان الاتجاه الوصفي -وهو جدّ السلالة البنيوية- أكثر إصراراً على هذه الواجبات، وأبعد في التزامها والإجراء لها والتنفيذ، وأشدّ تعصباً لحرماتها والتعبد بمقدساتها. وهو -فيما أرى- منهج بدائي يمثل طفولة البحث المعرفي، ولا بد أن تتلوه مناهج أوسع أفقاً وأدق نظراً وأوفى اهتماماً، شأن ما جرى في الدراسات العربية الباكورة، على عهد الإمام علي ابن أبي طالب، ثم ما تلا ذلك من تفصيل وتفسير وتعليل. وإلا عاش الدرس اللغوي في خطوات طفولية وقوقعة سطحية، وغابت عنه عوالم غنية المضامين من الحقائق اللغوية.

وكان أن تسنى لبعض أبناء العروبة أن درسوا علم اللغة، في أوربة منذ عشرات السنوات، وعاصروا أوج الاتجاه الوصفي هناك، فصاحبوه وتشبعوا به، ونقلوه إلى طلابهم في الوطن العربي، وطالب للجميع أن يسقطوه على اللغة العربية، ويفسروا به ظواهرها وقوانينها وتاريخها،

(١) البنيوية ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٨ و ٢٢٧ .

والأشكال والأنماط والتراكيب والدلالات<sup>(١)</sup>. وفي خلال ذلك عرضوا بالبحث والدراسة للعمل الإعرابي<sup>(٢)</sup>، فأروا أن فكرة العامل في الدرس النحوي خرافة يجب استبعادها من مجال البحث، ليكون للإعراب تفسير صادر عن اجتماعية اللغة.

والحقيقة - كما يرون - أن اللغة منظومة متكاملة من الأجهزة، تتألف عناصرها من أساليب عُرْفِيَّة، تتعاون لبيان المعاني الوظيفية للتعبير. فإذا رُفِعَ الفاعل في العربية، ونُصِبَ المفعول وجَرَّ المضاف إليه، فلأنَّ العُرف الاجتماعي هو الذي يربط بين هذه الوظائف وصور إعرابها<sup>(٣)</sup>. وبناء على هذا فإن المجتمع هو البديل من العوامل المصطنعة، وهو الذي يقوم بالعمل الإعرابي، ويقف وراء هذه الألوان المتغيرة للدلالة على وظائف التركيب. ثم إنَّ العُرف اللغوي المرتبط بالمعاني الوظيفية يحقق الأشكال الصوتية الدالة عليها، دون تدخل من لفظ أو إرادة أو سلطان خارجي.

والحق أيضاً أنه قد كان لهذه النظرية بعض لمحات في كتب المتقدمين، مثل قول الفراء في التعليل على بعض نصوص القرآن وغيره<sup>(٤)</sup>: والعرب تنصب بالذم والمدح، وأما نصبهم «بعرضة» فيكون من ثلاثة أوجه، وهم يوقعون «سَفِيَّة» على «نَفْسِهِ» وهو معرفة، وربما رفعوا «النازلون»

(١) أبحاث في اللغة العربية ص ٩.

(٢) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٨٥-١٨٩ وفي النحر العربي قواعد ونطيق ص ١٥ والمفتاح لتعريب النحر ص ٢١٨ ودراسات في الإعراب ص ٣١.

(٣) اللغة بين المباشرة والوصفية ص ٥١-٥٢ وأصول النحر العربي ص ٢٧٥.

(٤) معاني القرآن ١: ١٦ و ٢١ و ٧٩ و ١٠٥ و ١٢٠ و ١٦٨ و ٣٨٢.

والطبيون» وربما نصبوها على المدح، ويقولون: «عندي عشرون صالحون» فيرفعون، ويقولون: «عندي عشرون جياداً» فينصبون. ومن العرب من يرفع ما تقدم في «إلا»، وبعض بني أسد وقضاعة إذا كانت «غير» في معنى «إلا» نصبوها، تم الكلام قبلها أو لم يتم.

والحق أيضاً أن النظرية الاجتماعية تفيد البحث كثيراً، حين يتعرض لتطور اللغة، ويتبع التغيرات الطارئة عليها في البيئات المختلفة والأزمنة المتتالية. فهي تفسر جانباً كبيراً من اللهجات المحلية والعامية، وتبين أثر الأعراف في تكوينها وتشكيل قوانينها وضرابطها وصورها. ثم تقف بعد هذا عاجزة عن تناول المخزون العربي الفصيح وسبر أغواره، لأنها تناقض بفهمها الاجتماعي المتغير ثبات القوانين والأحكام والأشكال الخالدة، مع اختلاف الأصقاع والعصور، وإن كانت تناسب ما انبثقت عنه في تاريخ الدرس اللغوي الأجنبي. فلا غرو أن يكون إقحامها في الدراسات النحوية العربية يراد به تسويغ الشيعة للهجات العامية المحلية، حتى تصبح هي المسيطرة على عروبة اللسان، كما هي الحال في كثير من البلاد الأعجمية.

إنها تعتمد العُرف الاجتماعي مرتبطاً بالزمان والمكان، وتنسى ما له من أسباب مادية ومعنوية، وعوامل مختلفة، تؤثر فيه وتوجهه وتغير كثيراً من واقعه وأحكامه. ولكي يفهم هذا العُرف جيداً لا مفر من دراسة تلك الأسباب والعوامل، واستقراء آثارها ونتائجها في ميادين حياة المجتمع، واللغة عنصر أساسي في تلك الحياة.

ثم ما هو العُرف اللغوي هنا؟ إنه ظاهرة الإعراب، عن الوظائف النحوية وعلاقة المفردات والجمل بعضها ببعض، والصور الصوتية المخصصة الدالة على ذلك، من رفع ونصب وجر وجزم، والقانون الذي يضبط وينظم ومواقعها ودلالاتها. فإذا فسرنا الإعراب بالعُرف كنا كمن يفسر الشيء بالشيء نفسه، ولا يقدم أمراً ذا قيمة للمعرفة والبحث العلمي.

إن العُرف الاجتماعي هو مناط كل مظاهر المجتمع، من سياسة واقتصاد وعمل وتربية ولغة... فاعتماده في هذا المجال التعبيري، لتفسير العمل الإعرابي، سدُّ أبواب البحث وقطع لسبيل التفكير والدراسة، وتعطيل للإنتاج العلمي الإيجابي، شأن مارأينا من آثار النظرية الإلهية، مع تهديد لا طراح العربية الفصحى، وتسويغ لسيادة اللهجات المحلية، وجعلها مركزاً للبحوث اللغوية المعاصرة.

إن القانون العرفي يوجه الأحداث والأحوال والأعمال، وينظم أشكالها وأنماطها المختلفة. إلا أنه لا يولد تلك الأحداث والأحوال والأعمال والأشكال والأنماط، ولا يتتجها دون عوامل تساعد وتعين وتحقق. فالقانون إذاً يفرض الإعراب، ويوجب التزامه في التعبير، فيتحقق في الأداء عمل إعرابي. أما الدرس النحوي عند العرب فقد تجاوز ضبط القوانين وصور تحققها، منذ ألف وأربعمائة سنة، ولسنا مضطرين أن نتجاهل ما مضى، ليعيد التاريخ نفسه نسخاً مكروءة، فنسترجع المراحل كلها، لنقف عند أوائلها في طفولة البحث اللغوي، ونفسر ظاهرة

الإعراب تفسيراً اجتماعياً ساذجاً. ولا بد لنا من وقفة متأنية، تقدم للعمل تجربة جديدة في تفسير ظاهرة العمل الإعرابي.



وختاماً لهذا العرض المفصل، وما تضمنه من تحليل وتقويم للمشارب المختلفة، نرى ما اتسمت به النظريات المفترضة، من قصور وعجز عن حل مشكلة العمل الإعرابي. وأنت إذا أسقطت النظرية الصوتية للخطأ الذي بُنيت عليه في قول من نسبت إليه، والنظرية الخلافية لبعدها عن واقع العربية وإجماع النحاة، تحصل لديك ست محاولات عجزت كل منها عن استيعاب ظاهرة الإعراب، وتفسيرها تفسيراً علمياً ناجحاً.

ثم لو جمعت بين هذه الست في أسلوب تكاملي كان لديك أن تقول: إله - جل وعلا - هيا للمجتمع العربي تأصيل قواعد الإعراب ودلالاته وللإنسان في ذلك المجتمع قدرة على استيعاب ما أصّل وإنجازته، فكانت المعاني النحوية توجهه، والقرائن التعبيرية تُمدّه بالوسائل والأدوات وتحدّد أنماط الإعراب لتشبيها بما يُتم معناها ويحقق الضوابط والقوانين الناظمة. فإذا هو، متكلماً أو كاتباً أو قارئاً، يقوم بتنفيذ تلك الأصو والواجبات.

على أن هذا الافتراض يشبه الحلول التوفيقية الهشة، أكثر مما يعته الحكم الجذري الوافي السديد، ولا يعفينا من إعادة البحث مراراً في ها

المشكلة، لوضع نظرية واعية متميزة، تعالج واقع العمل الإعرابي، بفهم لجميع مظاهره، وما تتسم به العربية من ازدواجية في تحكيم المبنى والمعنى. وبذلك يمكننا أن نقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من التحكم والنظرات الجائنية القاصرة. وهذا ما سيكون موضوع الفصل القادم، إن شاء الله، عز وجل.

في هذا الفصل، سنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة. وسنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة.

في هذا الفصل، سنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة. وسنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة.

في هذا الفصل، سنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة. وسنحاول أن نضع أسساً علمية سليمة، لنفهم واقع العمل الإعرابي، ونعالج مشكلاته، ونقدم حلاً علمياً إيجابياً، بعيداً من النظرات الجائنية القاصرة.

## الفصل الثالث

### الاقتضاء والعمل الإعرابي

كنا قد تتبعنا، في الفصل الأول، موضوع العمل النحوي في لغة العرب، وتبين لنا أنه يمثل جانباً من النحو، ويبعد عن الزاوية الصرفية، مما يوجب إلحاقه بالميدان الإعرابي الخالص. وعندما عرضنا ألوان الإعراب الاصطلاحية التي وردت على أقلام النحاة وألستهم، رأينا أن هذا العمل الصق بالنوع الصوتي منه، حيث تتفعل أواخر المفردات المعربة بما يناسب التركيب، من دلالات وظيفية ومعنوية ولفظية، في الجمل والعبارات قراءة وكتابة وتعبيراً.

ثم حاولنا، في الفصل الثاني، أن نستقصي الأنظار التي انصبّت، في بؤفة هذه العمليات اللغوية الانفعالية، فإذا نحن أمام توجهات مختلفة، تطلعت إلى تفسير الإعراب الصوتي، وتحديد مصدر تولده وإنتاجه. وقد كان طبيعياً أن تختلف تلك الأنظار في المسير والمصير، لما صدرت عنه من بيئات فكرية متفاوته، ونزعات مذهبية تحمل أصحابها



على تناول الأمور من زوايا متباينة، وفهمها فهماً يوافق الأصول والفروع المُنْبَنَة.

أما النزعة اللغوية فقد ولدت الخلاف، بين أصحاب نظريات اللفظ والمعنى والتعليق. وأما المذاهب الفكرية فدعت معتقديها، إلى التوزع في تفسيرات إنسانية وإلهية واجتماعية. ثم كان للمنازع الشخصية تميز بطرح ما عرفناه تحت: النظرية الصوتية، والنظرية الخلافية. هذا من جهة، ومن الجهة الثانية كان الخلاف منشعباً بين جميع المقولات أيضاً، لمحاولة الوصول إلى حل يمثل الواقع اللغوي، مع لقاءات جانبية في بعض زوايا الانعطاف.

فقد اجتمعت الوجهة الشخصية الخالصة والنزعة الاجتماعية، في إنكار العامل أصلاً، حين زعمت الأخيرة أن الإعراب عُرف لغوي، يربط المجتمع بين صور أداؤه وبين وظائفه، ويوجه الأفراد إلى تحقيق ذلك بالتعليم والرقابة والمحاسبة العسيرة، وحين رفضت النظرية الخلافية الحاجة إلى العامل، بدعوى أن ليس للإعراب وظيفة معنوية، وحين وصفت النظرية الصوتية ظواهر الإعراب بأنها رموز اعتباطية لتيسير النطق بالكلام. وثمة اجتماع آخر بين سائر التوجهات، يُقرّ وجود ظاهرة العمل، ثم يشتق كل فريق سبيلاً خاصاً، لطرح ما يفسرها ويحدد أمسيها المتصورة.

والحق أن أكثر تلك النزعات لم يكن وليد طفرة آتية، وإنما هو نتاج مقولات لكبار النحاة، انتثر في المصادر المختلفة من التراث. فقد وقف

المنظرون لتفسير العمل الإعرابي، على شيء من هذه الشذرات المتفرقة، ونظم كل منهم له سلكاً دقيقاً، يوجهه نحو هدفه الذي خطه وانطلق إليه. ومن هنا برزت نصوص صريحة تزيد بعض النظريات، وأخرى خفية تساعد بعض التوجهات المتباينة، يشدها كل إلى سبيله بالرفق واللين أو بالقسر والإكراه.

على أن تلك المحارلات، مجتمعة ومتفرقة، لم تستطع أن تضع حلاً، يشمل كل ظواهر الإعراب، ويفسر وقائعه تفسيراً لغوياً عملياً، وإن كانت قد طرحت حلولاً لبعض المسائل الجانبية المحدودة، مع خلاف في درجات الكم والنوع:

فَكُلُّ يَدْعِي رَصْلًا، لَيْلَى

وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُ، بِذَاكَ

ولذا كان على الدارس أن يواصل البحث، لوضع اليد على مفتاح لغوي، يستوعب جوانب القضية، ويكون أقرب ما يمكن من واقع لغة العرب، في أصولها وفروعها وخصائصها المميزة. وهذا ما نحاوله في الصفحات القادمة، إن شاء الله.

### مقدمات نظرية

موضوع العامل الإعرابي يطرح على الباحث مفهوماً مبدئياً، يتطلب البيان والتوضيح. ذلك هو مصطلح العمل. إذأ لنبدأ بالفهم لدلوله، وما يتسرب منه إلى عالم التعبير اللغوي. فالمشهور بين الناس أن العمل: بذل

الجُهد لتحقيق أثر أو إنتاج شيء. وعلى هذا فالعامل هو ما يقوم بذلك الجُهد، وهو المؤثر أو المنتج، أي: السبب والعلّة الفاعلة. وقد نقل النحاة ذلك اللفظ إلى ميدان الإعراب، وتجاوزوا في استخدامه بمعنى اصطلاحى متميز، دون أن يحددوه ويبينوا أبعاده بدقة ووضوح. وعندما وقف عليه المتأخرون والمعاصرون، توهموا فيه لمحات من الوضع اللغوي المعروف، فكان التوسع في الخلاف والنزاع.

لقد حُمِل المصطلح العلمي حملاً ظاهرياً، فتبدى للمنظرين والمفسرين أن المراد به هو المنتج والمؤثر، حتى عبر عنه بعضهم بأنه آلة الفعل، واشترطوا أن يكون أقوى من المعمول<sup>(١)</sup>. وإذا ذاك انطلقت الآراء، لتقول: إن العامل هو الله - تعالى - لأنه خالق كل شيء، أو المتكلم لأنه ينجز التعبير ويلوّن جوانبه باللمسات الصوتية الحاصلة، أو المعنى النحوي للمعمول نفسه إذ تفترض وظيفته لوناً متميزاً من العلامات، أو اللفظ اللغوي الذي يترك بصماته فيما يلزمه من الوحدات والتركيب، أو العرف الاجتماعي المسير للنتاج اللغوي في نمطية تقليدية موحدة...

ونحن نرى أن فهم طبيعة العمل الإعرابي تفرض على الباحث الوقوف، إزاء ما يشتبك وإياه من المصطلحات العلمية المجردة، في وضعها اللغوي، ومقاصدها الخاصة. وأنت معي، في أن الفهم الوضعي للعمل أفرز التوجه إلى «السببية» بأشكالها المختلفة، وراح يتصيد ما تحتمله في الميدان الإعرابي، من وجوه شخصية واجتماعية ومذهبية وفلسفية. فما هو «السبب»؟

(١) انظر مفاتيح العلوم ص ٨٦ .

إنه في الوضع اللغوي مراد به الحبل، أي: ما يُتوصل به إلى المقصود. وذلك نحو القراءة سبباً للفهم، وطرق الباب وسيلة لفتحه، والنداء أداة للتنبيه والتوجيه. أما في الاصطلاح العلمي فهو ما يتوقف وجود المسبب عليه، ولكن لا يتحقق المسبب بوجود سببه وحده. وهذا ما يُعرف بالسبب غير التام، كفتح باب القفص لانطلاق الطائر، وضغط زر الكهرباء للإنارة، ودخول وقت الصلاة لأدائها. ويقابله السبب التام، وهو ما يتحقق بوجوده وحده المسبب، ويسمى العلة الفاعلة أو السبب المباشر، كالطعام يحقق الإفطار، والطلاق تلزمه العدة، والكلام المخالف يفسد الصلاة.

ثم كان لدينا، فيما ذكرنا قبل، توجه الأنظار إلى «العلة»، على أنها مرادفة للعامل. وهي في اللغة تعني ما يؤثر في غيره تأثيراً مباشراً، كالضرب بالسكين يتولد عنه الجرح، ودرجة الصُّفر تحمّد الماء الخالص، والدواء النوعي يكون عنه الشفاء بإذن الله. ثم تراها في الاصطلاح: ما يتوقف عليها وجود الشيء، وهي خارجة عنه ومتجهة له وفاعلة، كالمفتاح لإزالة الإغلاق، والطعام يولد الشبع، والشراب يُحدث الرِّي، والنار تحرق، وظهور القمر وغروبه عِلَتين للمد والجزر.

وهذه كما ترى مؤثرة بذاتها، وهي علة حقيقية تامة، يجب أن تسبق المعلول في الحصول، وترافقه في الوجود أيضاً، ومنها «الآلة» التي يُعمل بها، وتكون أعقد من الأداة، وأبسط من الجهاز. أما العلة العقلية فهي غير مؤثرة بذاتها، وتُقارن المعلول في الوجود، نحو الحيض يوجب ترك الصلاة، والسفر يميز الإفطار وقصر الصلاة. إنها تقتضي الحكم،

فتوجب وقوعه أو تحيزه، مثل قولنا: استمعا ويكتبان وأغلق الباب  
وادخلن، في وجوب حركة ما قبل الألف ولام التعريف ونون التوكيد،  
ومبيع واشدذ وذيب، مع جواز: مبيوع وشدذ وذنب.

ثم إن العلة أنواع. فقد تكون فاعلة منتجة، كالنجار والمصلي والسائق  
وعامل المطبعة، ينتجون النجر والصلاة والسياسة والطباعة، أو مادية  
يُصنع منها المسبب، نحو: الخشب وحركات الصلاة والسياسة والخبر  
والورق. وقد تكون صورية، فتمثل الهيئة التي يتوضع عليها الشكل  
المصنوع، من مثل: الخزانة والصلاة وأسلوب السياحة وشكل الكتاب،  
أو غائية فتعني الهدف الذي صُنع له المسبب، كصون الملابس والعبادة  
وقيادة السيارة والقراءة.

وأخيراً ثمة العلة العدمية. وهي التي تؤثر بتخلّفها، فيحصل المسبب  
لفقدها من الوجود. ومثال هذه العلة انعدام بعض الحواس، يُتَجع عنه  
فقد القدرة على إدراك المسموعات، أو المراثيات أو المشمومات أو  
المذوقات أو الملموسات. وكذلك انعدام المناعة في الجسم يكون عنه  
الأعراض والأمراض والأخطار، وانعدام المصلحين يتولد عنه الشر  
والفساد، وانعدام التنفس أو الهواء يحصل به الموت، وانعدام الجاذبية  
يولد الاستقلال المطلق للجسم.

وعندي أن هذه العلة هي غيابية لاعدمية، إذ تغيب فيحل محلها  
عناصر بديلة. فغياب الحرارة مثلاً ليس هو العلة لتجمد الماء، وإنما  
البرودة التي تَحُلَّتْها هي العلة لذلك. وغياب الأب عن الأسرة يكون معه  
اضطراب، علته تحكم النزعات المتضاربة والتوجهات القلقة. والجُرُور

ليست علته غياب الشمس والقمر، بل تفرّد الجاذبية الأرضية والضغط الجوي والجزر في القشرة الأرضية وقاع البحار بالتأثير، مع ما يكون من مدّ في الطرف الثاني من الأرض. والأمراض ليست دائماً لغياب الجِمية والهدوء والراحة، وإنما تحصل بوجود الإرهاق والانفعال والجراثيم وقد بعض المقومات.

وثة التباس للعلة الفاعلة بالسبب الحقيقي، يزيله ما بينهما من فوارق ظاهرة. فمنها أن هذا السبب يحصل الأمر عنده لا به، خلافاً لتلك العلة التي يكون الحصول بها نفسها. ثم إن الأمر يتولد بالعلة مستقلة دون وساطة شيء آخر، في حين أنه يتولد بوجود السبب مع الوساطة. يعني أنه يتراخي تولده، حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع. وهذا فرق آخر.

وهنا يظهر عنصر «الشرط»، وهو في الدلالة اللغوية يعني العلامة، أو إلزام الشيء والتزامه في أمر من الأمور. والمفهوم الاصطلاحي له أنه ما يتوقف عليه وجود الشيء، ولا يكون جزءاً منه ولا مؤثراً فيه. ومن ذلك دخول الوقت والوضوء لحصول الصلاة، ونيل الشهادة الثانوية للانتقال إلى المرحلة الجامعية. وقريب من هذا ما عُرف بـ «الركن». وهو لغة: أحد ما يستند إليه الشيء أو يقوم به، واصطلاحاً: ما يتم به الأمر وهو جزء منه، كالجدار للغرفة، والركوع والسجود في الصلاة، والضلع والزاوية في المثلث.

ومما يتعلق بهذه الدائرة النظرية ما يعرف بـ «الدليل»، أي: المرشد، كآثار الأقدام دليلاً على السير، وطرق الباب دليلاً على قادم. هذا معناه اللغوي. أما معناه الاصطلاحي فهو ما يلزم من العلم به علم شيء آخر،

نحو احمرار الوجنة إشعاراً بذات الرثة، واصفرار العينين إعلاماً باليرقان.

وقد تلتبس «القرينة» بالدليل، مع أنها متميزة عنه، لأنها في اللغة تعني ما يقارن الشيء، كالنفس والزوجة للإنسان والزوج. وهي في الاصطلاح: ما يشير إلى المقصود، من لاحق الأمر أو سابقه، نحو قولك للمسافر: «مع السلامة»، أي: سر مصاحباً إياها. وهذه قرينة حالية. ومن القرينة المقالية ورود «إلا» في نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾؟<sup>(١)</sup> مشيراً إلى كون «هل» فيه للثني.

و«الملزوم» مما يدخل في حيز موضوعنا أيضاً. وهو لغة: المتعلق به والمدارم عليه والمحصول منه، واصطلاحاً: ما يلزم لوجوده وجود أمر آخر، هو اللازم، أي: الذي يمتنع انفكاكه عن الملزوم. وهذا مثل: الرعد للبرق، والدخان للنار، والسقف للجدار، والفاعل للفعل أو ما في معناه.

فهل العامل الإعرابي هو أحد هذه المصطلحات التي ذكرنا، أعني: السبب والعلة والآلة، والشرط والركن، والدليل والقرينة والملزوم؟ الحق أنه يلامسها ويلتبس بها، إلا أنه ليس واحداً منها خالصاً. فقد ترى في العامل سبباً لوجود الإعراب وعلة وآلة له، وشرطاً فيه وركناً له، ودليلاً عليه وقرينة مشيرة إليه، وملزوماً يصاحبه الإعراب ظاهراً أو مقدراً أو محلياً. إلا أنه، في الحقيقة، لا يمكن أن يحصر في واحد من ذلك حصراً موضوعياً مَرَضِيّاً.

(١) الآية ٦٠ من سورة الرحمن.

## نظرية الاقتضاء

لقد رأينا في المقدمات الماضية نماذج من المصطلحات النظرية، تتصل بالعامل الإعرابي، رتكاد تكون بمجموعها عناصر مفسرة له، ولكنها تعجز عن تحديده تحديداً جامعاً مانعاً. فإذا كان عاملنا هذا قد امتنع حصره فيها، أو في بعضها أو في واحد منها، فلتتوجه إلى نقطة ثانية، تسعفنا في هذا المجال. وليكن وقوفنا إزاء ما يسمى بالاقتضاء. فلعل فيه ما يحل مشكلتنا هذه، بعد أن اضطرب فيها النحاة، بضعة عشر قرناً.

فالاقتضاء يَرِدُ في اللغة بمعنى الطلب أو الاستيجاب أو الدلالة، والمقتضي هو الطالب للشيء. وقد ورد استخدام ذلك كثيراً في كتب المتأخرين، وله مفهوم لغوي وآخر نحوي:

أما الأول فيكون في الاسم المقتضي، نحو قولك<sup>(١)</sup>: أخ وشريك وابن وخصم وجار وتلميذ وشارٍ وقاتل وزوج ومالك. فكل واحد من هذه الأسماء إذا ذكر اقتضى ما يترتب عليه، لأن الأخ يستدعي في الذهن أخاً أو اختاً، والشريك يتطلب شريكاً أو شركاء، والابن يقتضي أبا وأماً وقد يقتضي أجداداً وجدات، والخصم يستحضر من يخاصمه، والجار يترتب عليه جارٌ ومكان وزمان، والتلميذ لابد له من أستاذ وعلم، والشاري يستلزم بائعاً وبضاعة وثمناً، والقاتل يتطلب مقتولاً وسبباً ومكاناً وزماناً وأداة، والزوج يعني وجود زوجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع، والمالك يستدعي مملوكاً واحداً أو عشرات أو مئات.

(١) انظر الصاحبي ص ٨٦-٨٧.



ثم لا بد أن يكون بين المقتضي والمقتضى تأثير وانفعال، يتمتع بأولهما الأقوى أو المتقدم، ويستجيب لثانيهما الأضعف أو المتأخر.

وأما الثاني ففي مثل قول ابن يعيش<sup>(١)</sup>: «ألا ترى أن الضرب والقتل يقتضيان مضروباً ومقتولاً؟... وكل واحد من أفعال الحواس يقتضي مفعولاً، مما تقتضيه تلك الحاسة. فالبصر يقتضي مُبْصَراً، والشم يقتضي مشموماً، والسمع يقتضي مسموعاً. فكل واحد من أفعال هذه الحواس يتعدى إلى مفعول، مما تقتضيه تلك الحاسة». يضاف إلى ذلك ما يكون من زمان ومكان وسبب وغاية وآلة ومصاحبة وبيان.

ثم كان للاقتضاء حضور اصطلاح في كتب المتأخرين من النحاة، سنعرض نماذج منه قريباً، إن شاء الله - تعالى - ونستأنس أخيراً بنماذج متعددة في بحث ما نرمي إليه. وفي عبارة لبعض المعاصرين أن المُقتضي عند النحويين: «ما تكون به الكلمة صالحة للإعراب، وهو العامل»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا ما يوحي أن المقتضي هو العامل الإعرابي<sup>(٣)</sup>. غير أنك لو تتبعته سياق العبارة تلك، في ضوء ما ذكرناه عند الحديث عن «نظرية التعليق»، تبدي لك أنه يصدر عن هذه النظرية، ويعبر عنها تعبيراً غير دقيق. فأصحاب تلك النظرية يقولون: «إن المقتضي للإعراب هو توارد المعاني المختلفة على الكلام، بسبب التركيب. فإنها تستدعي ما يُنصَبُ دليلاً على ثبوتها»<sup>(٤)</sup>.

(١) شرح الفصل ٧: ٦٢. وانظر معني الليب ص ٢٤٦ و ٢٧٤ و ٤٨٠ و ٤٨١.

(٢) عبط المحبط (قضي).

(٣) انظر ص ٢٦٨ و ٢٢٠ من التحليل معجم مصطلحات النحو العربي.

(٤) باب الإعراب ص ٤٩٩.

ثم إذا فسروا مقولتهم هذه ذكروا أن «عمل المعاني المقتضية للإعراب هو الاسم. ومن ثم حُكم له بأصالة الإعراب»، وأن البناء في الأسماء «إما لفقدان المقتضي، وإما لوجود المانع. وهو مناسبة غير المتمكن»، وأن المقتضي لإعراب الفعل المضارع هو «مضارعه لا اسم الفاعل لفظاً ومعنى واستعمالاً». فتوقعه بنفسه موقع الاسم يقتضي له استحقاق الرفع، وبعد ما لا يصلح للاسم أصلاً يقتضي له الجزم، وبعد ما لا يصلح للاسم إلا بضميمة يقتضي له النصب أو الجر. وقد أوتر النصب لحفته، ولأن عامله يشبه ناصب الاسم<sup>(١)</sup>.

وأنت ترى معنا، من هذا كله، صدى ما ذكرناه قبل، من أننا إزاء بُعدٍ بمرحلتين: الاقتضاء والعمل. وقد ورد التعبير عن هذا كثيراً لدى النحاة المتأخرين. فعندما عرض الزنجشري للحديث عن الإضافة ذكر أنها «هي المقتضية للجر، كما أن الفاعلية والمفعولية هما المقتضيتان للرفع والنصب»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا نص صريح بتوسط الوظيفة النحوية بين العامل والمعمول.

وقد عمم ذلك، بوضوح وتفصيل، أحد المعلقين على شرح الرضي للكافية، حين ذكر أن إعراب الأسماء، كالرفع والنصب والجر، له مقتضيات لأجلها يثبت كل نوع منه.

فمقتضي نوع الرفع في الأصل الفاعلية، وكون الاسم مبتدأ، وكونه

(١) نفس المصدر ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) الفصل ص ٣٦. وانظر الإرشاد إلى علم الإعراب ص ٣٠٤ وحاشية الصبان ١:

خبراً، ثم كونه قائماً مقام الفاعل، وكونه خبر «إن» و«لا» التبرئة أو اسم «كان»، وكذا كونه اسم «ما» الحجازية.

ومقتضي نوع النصب في الأصل المفعولية، ثم كون الاسم اسم «إن» و«لا» التبرئة، وكذا كونه خبر «كان» وخبر «ما»، وكذا كون الاسم حالاً أو تمييزاً أو مستثنى.

ومقتضي نوع الجر كون الاسم مضافاً إليه معنى، أو مشيهاً للمضاف إليه<sup>(١)</sup>.

فالمقتضي للإعراب هنا ليس عاملاً له، وإنما هو تحقق تلك الوظائف النحوية في المعمول، وهذه الوظائف أو المعاني تستدعي علامات تدل عليها. أما العامل فهو الكلمات التي تثبت بالاسم أو ما يشبهه، ونحدث فيه تلك الوظائف. ولهذا كان المقتضي يتطلب وجود الإعراب ولا يوجد، فإذا فقد الاسم وظيفته النحوية، بانطلاقه من التركيب مثلاً، كان غثلاً لا يحمل دلالة إعرابية. وكذلك شأنه، إذا انتظمه تركيب وهو يحمل مانعاً من التلون الإعرابي. ولهذا أيضاً كان للفعل المضارع اقتضاء إعراب، في مواقع: الرفع والجرم والنصب.

وهكذا يظهر، لنا بوضوح، أن العبارة التي أوهمت هناك كون المقتضي عاملاً هي اختصار مقتضب لنظرية التعليق، تغيب فيه معالم الأصل المختصر، ويوجه الأنظار إلى غير ما رمت إليه. ولست تخرج على

(١) شرح الكافية للزمي ١: ٢٩٨-٢٩٩.

الصواب، إذا زعمت إيهامه أيضاً أن المقتضي هو ما يسبب صلاحية المفردات للإعراب. وهذا غير ممكن حصره في مفهوم العامل الإعرابي، لأنه مرمى بعيد جداً عنه، وليس له من الإصابة شيء. وقد عبر عن مثله قول الشاعر متغزلاً:

سَهْمٌ أَصَابَ، وَرَامِيهِ يَذِي سَلَمٍ،

مَنْ بِالْعِرَاقِ، لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرْمَاكَ

فالمقتضي في «نظرية التعليق» هو حالات وظيفية للمعمول في العبارة، أي: صفات تلابسه فتستدعي الإعراب عن ذاتها بعلامات دالة. وهذه العلامات ليس من الضروري أن تكون محدّدة، بحيث تلازم كلّ موقع معيّن صورةً مخصصة متميزة، بل يجوز أن تبقى عامة مطلقة.

ثم إن تلك الحالات ليست هي العاملة للإعراب. وإنما العامل، في النظرية المذكورة، هو اللفظ الذي يولدها في التركيب، بسبب حاجته إلى ما حوله منها. وقد بسطنا، فيما مضى، قصور هذه النظرية وعجزها عن حل المشكلة حلاً كاملاً.

ولذلك نقف من المقتضي موقفاً آخر، يساعدنا على الوصول إلى النظرية المُبتَغاة، فنقول: المقتضي هو ما يصاحب الشيء ويطلبه ويمنع تركه، فيكون كالموجب، وقد يميز تركه فيكون كالنادر. والأول منهما يشمل الباعث المتقدم على ذلك الشيء والغاية المتأخرة عنه معاً، أو يخص كلاً منهما على حدة، في حين أن الثاني يكون خاصاً بالغاية، فيقتصر على ما يهدف إليه.

وممكننا أن ننقل هذه المفاهيم إلى الحيز النحوي، لنربطها بالميدان الذي نحن فيه، فنرى في الاعتراض وحرف الجر وجلة الشرط ما يمثل شمول الطرفين، إذ كل منها يستوجب متلازمين. أما الخبر والفاعل والصفة فهي تعبير عن متقدم عليها، وهو المبتدأ والفعل<sup>(١)</sup> والموصوف. وأما الاستئناف والمضاف وقولنا «أولاً» فيقتضي كل منها ما يترتب عليه، لأن الاستئناف يلزمه قطع التركيب، والمضاف يلزمه المضاف إليه، والأول لابد له من ثان مثلاً.

وإذا رجعنا إلى مفهوم العامل، في العلوم التطبيقية والطبيعية والإنسانية، لمسا منه ضرباً من الاقتضاء. فالمعروف لدى العلماء أن العامل هو أحد العناصر التي تصاحب الظاهرة، وتكون مرافقة لحدوثها. إنه يساعد على ذلك، وليس العلة الحقيقية التي تقوم به أو تتجه.

فعوامل الصحة مثلاً بعد تقدير الله - تعالى - هي: وراثة وغذاء ورياضة ونشاط وماوى ولباس وخلق وتربية. وقلة الثمار في موسم ما تترتب على عدم كفاية المطر والسماذ والعناية وغبار الطلع، وعلى قسوة الرياح والصقيع والحشرات. والنجاح في المشاريع العلمية أو العملية يقتضيه ذكاء وخبرة وجد وكياسة وظروف مادية ومعنوية. وضعف المهارات اللغوية يتولد من قصور الطالب والأستاذ والمنهج والأسلوب والكتاب والبيئة والاهتمام والترغيب والجدوى...

(١) اقتضاء الفعل للفاعل ضرورة عقلية، حتى إن الطفل إذا رأى شيئاً قال: من عمل هذا؟ ولا يفتح البتة بأنه حصل من دون فاعل. الفصل في الملل والأهواء والنحل ١: ١٢. وانظر

وعلى الرغم من التفاوت في درجة الفاعلية، بين ماعدّدنا من العوامل، فليس لك الزعم أن أحدها هو العنصر الوحيد المؤثر. وكذلك الشأن في موضوعنا المطروح: العامل الإعرابي. وإذا استرجعت النظريات التي عرضناها في الفصل الثاني، ووجهت إليها مارأيت من تعدد عوامل الظاهرة المعيّنة، كان لديك سلسلة منها في ظاهرة الإعراب. وهي: الله تعالى، والمجتمع الإنساني، والعُرف التعبيري، والإنسان المتكلم، واللفظ اللغوي، والوظيفة التركيبية.

ثم إن العمليات اللغوية ظاهرة إنسانية، لا بد لها من عدة عوامل، تتفاوت مستوياتها ودرجة فاعليتها أيضاً. بيد أن النظريات المذكورة غفلت عن هذه الحقيقة، إذ توزعت تلك العناصر، واقتصر كل منها على جانب واحد أو اثنين، دون التوجه إلى ما يسمى بالعامل المباشر. فالنظرية الإلهية تقصد السبب الأول الميسر، والاجتماعية تتوجه إلى العلة الفاعلة للنظام الموجه، والإنسانية تتردد بين اللفظ والمتكلم، والمعنوية تحدد وظيفة الإعراب، والخلافية تعتمد ضرورات التركيب، واللفظية تتوهم المؤثر المنتج، ونظرية التعليق توسط الوظائف بين اللفظ المؤثر والعمل الناجز.

### ازدواج العمل الإعرابي

لقد كان ماذكرناه، من نظرية الافتضاء، هادياً إلى الفهم العملي لظاهرة الإعراب، إذ وجه الأنظار إلى زاوية مهمة جداً، هي مفهوم العامل وتحديد وظيفته في التعبير. إنه مقتضى للإعراب، أي: عنصر مساعد ومؤيد، وليس منتجاً حقيقياً أو مؤثراً طبيعياً. ولا بد أن نذكر هنا ما انتهينا إليه، في تمهيدنا بـ «التفاعل الصوتي».

فقد تبين لنا هناك أن بين الأصوات تبادلاً واضحاً للتأثير والتأثير، بعضه لعلة فاعلة منتجة، والآخر لمقتض يوجب أو يحيز. وهذان النوعان ينتثر منهما ألوان في التركيب النحوي، فيكون لثانيهما حضور متميز في العمل الإعرابي. أما النوع الأول فنغفله هنا، لأنه تفاعل خاص بين الأصوات في تركيب فيزياوي غير إعرابي.

ونحن في هذا المقام نريد أن نتوجه توجهاً لغوياً خالصاً، يستبعد الأفكار النظرية والمادية المعرقة، لنقف على العنصر المباشر في العمل الإعرابي. فالعمل هذا هو ظاهرة لغوية، ولا بد أن يكون العمل فيها من طبيعتها ومحتواها، ولا غرو أن نستبعد تلك النظريات المذكورة، لاعتمادها ما يبتأ من العناصر البعيدة.

وكلنا يعلم، من حيث المبدأ، أن اللغة الناجزة هي: لفظ ومعنى وشكل. فلا مفر إذاً من اعتماد هذه المكونات الثلاثة، في تفسير كل ظاهرة تركيبية. ثم إن التعبير اللغوي أقدم مرحلة له هي الكلام، أيّا كان نوعه. وهذا يعني أنه فكر وصوت ونمط، أي: تفكير عقلي وأداء متفاعل وكتلة متألّفة. فالتفكير يوجه إلى المعاني والوظائف، والأداء يحقق التفاعل الصوتي، والتكتل المصوغ يؤلف بين العناصر، ليشكل وحدة تعبيرية قاصدة.

ولو نظرت إلى هذه المكونات المذكورة لرأيت أن أقربها إلى العامل الإعرابي هو الأول والثالث، أي: التفكير القاصد والصياغة التركيبية. أما الأداء فأقرب ما يكون إلى الجانب الصرفي الذي أشرنا إليه آنفاً. وإذا كان منه بعض حضور في علامات الإعراب فلأنه صدى، للتفكير أو

الصياغة النحوية، لالمقتضى نحوي خالص. ومن ثمّ كان العامل عند جمهور النحاة معنى تركيبياً أو لفظاً نحوياً، ودار الخلاف بينهم في هذين الميدانين.

والحق أن الجمع بينهما هو الذي يوافق طبيعة العربية بين اللغات. إنه الازدواج المتألف، غفلت عنه جميع النظريات المطروحة، حين فسر العامل الإعرابي، فوقفت على قدم واحدة، أو انصرفت إلى عناصر جانبية بعيدة عن الطبيعة اللغوية.

وما يرد أحياناً في أقوال بعض المتأخرين، مما يشبه مذهبنا، هو قريب منا ولكنه لا يعني ما نريد. فما ذكره ابن يعيش من أن الابتداء يعمل في الابتداء والخبر لأنه يقتضيهما معاً<sup>(١)</sup>، وزعم المالقي (ت ٧٠٢) أن العامل يستدعي المعمول ويتضمنه ويختص به ويطلب التأثير فيه<sup>(٢)</sup>، وقول الأزهري (ت ٩٠٥) مثلاً<sup>(٣)</sup>: «العامل ما أوجب كون آخر الكلمة مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً أو مأكناً»، وذكره المقتضي للإعراب في التفسير للعامل، هذه الأقول محدودة بالمعنى أو اللفظ وحده، وتحمل معنى الوجوب.

وهذا يخالف لما زعمنا من الازدواج، ولما ورد من جواز الأعمال والإهمال، للمشتقات والمصادر، وما «ولو» و«أن» و«كي» و«إذا» «إلا» و«إذن» و«ليتما»، والشرط الجازم الذي وليه ماض، والنصب بـ«لم»

(١) شرح المفصل ١: ٨٥. وانظر حاشية شرح الكافية للرضي ١: ٢٩٩.

(٢) وصف الجاني ص ٧٠ و ١١٩.

(٣) العوامل المائة النحوية ص ٧٣ والتصريح على التوضيح ١: ٦٠.



والجزم بـ «لن»، والرفع لاسم «أنّ» المباشر والمتأخر، والإلغاء لبعض الأفعال أو اعتدادها زائدة في التركيب...

ولولا تلك الملاحظ المذكورة، وأمثالها كثيرة جداً، لكان قول الجزولي (ت ٦٠٧): «المفعول: ماتضمنه الفعل، من حدث وزمان، والتزمه الحدث من مكان، واستدعاه من محلّ وباعث ومصاحب»<sup>(١)</sup>، قد طبّق المَفْصِل وأصاب المحزّ، مما نحن في صددّه، لأنه يحوي كثيراً من التوجهات التي اعتمدناها، في تحديد معنى العمل الإعرابي وشخصية العامل.

إنّ الطبيعة الازدواجية عندنا حاضرة في عملية الإعراب، لأنّ المادة والمعنى هما العنصران المتفاعلان في التعبير، وعن ذلك التفاعل يصدر الناجز من الكلام، ليقدّم المقاصد والتجارب والتواصل الإنساني. وإذا كان للوظائف النحوية في ذلك نصيب وافر، لئلا تلغى من المهام الفكرية الأصيلة، فإنّ العناصر الصوتية هي أيضاً ذات مهامّ دلالية أصيلة. بل ربما دخلت على تلك الوظائف، فصار للصوت ازدواج طارئ آخر في التعبير، مع احتفاظ التركيب بما كان فيه، من دلالات المعنى النحوي.

وهذا كثير جداً، فيما يعرف من الإعراب، كدخول المضاف على التمييز والفاعل ونائبه والمفعول به، وحرف الجر على المبتدأ والخبر والفاعل وأغلب المفاعيل والتمييز، ودخول «كان» و«إنّ» وأخواتهما على جزأين متساندين، والقلب في التركيب إذ يكاد يعكس المعنى. وقد

(١) القانون في النحو ص ٢٢-٢٣. والنص فيه مضطرب.

يُحذف اللفظ فيبقى أثر تدخله، كما في نزع الخافض مثلاً، وقد يكون الإتيان على اللفظ أو الجوار، فيحصل عن كل هذا تغير ظاهر في التعبير الإعرابي، دون أن تلتبس الوظائف النحوية الأصلية على مخاطب أو قارئ.

ومن هذا ترى أن العنصر المادي أظهر وأطنى من المعنوي، ولا سيما في اللغة المكتوبة، إذ يغيب ما في مقتضى الحال من دلالات وإشارات ورموز، تُعيّن المقاصد وتوجّه المقال. ولذا كان اللفظ أولى بالاعتماد، فانصرف أكثر النحاة إليه وحده، إذ يتوجب عليهم تفسير الظواهر اللغوية الصوتية، بعناصر من جنسها، واللفظ الملازم للمعنى وإعرايه هو أقرب العوامل، وأنسبها وأظهرها في المقال.

بيد أنهم، في هذا التوجه، غفلوا عن جانب آخر مهم، من وظائف التعبير الإعرابي. ذلك هو ما يكون من دلالات تعبيرية، بقلب التركيب، أو بدخول اللفظ على الوظائف، وتصرفه في علامات الإعراب. فالمعروف أن نقل التعبير، من الصورة الأصلية المطردة إلى صورة فرعية قياسية، يتطلب زيادة أو حذفاً أو قلباً، وهو كثيراً ما يكون وسيلة مقصودة للمبالغة والتوكيد. وعليه فهذا التدخل المستبد يساهم، في إثبات تلك الوظائف التي امتزج بها، فيضيف إليها لمسات من الظهور والإبلاغ، ويصبح الازدواج الصوتي الظاهر معنوياً أيضاً بتأييد وظائف الإعراب، ويحقق ما زعمناه من الازدواج المتآلف في حيز التركيب.

ثم إن هذا التآلف الازدواجي مصدره طبيعة العمل الإعرابي، لأنها

مكرّنة من عنصرين لغويين متعاونين أيضاً. ذلك لأن العامل الحقيقي في الإعراب غالباً ما يكون ذا وظيفتين معاً مختلفتين، هما: العمل اللفظي في عناصر الكلام، والعمل المعنوي في دلالة التركيب<sup>(١)</sup>. ولسنا، في هذه السبيل، نحاول التوفيق بين نظريتي اللفظ والمعنى. فقد ذكرنا، من قبل، ضعف المساعي التوفيقية وهشاشة نتائجها، الأمر الذي يثينا عن متابعتها والسير في ركابها. وإنّا نحن هنا ندرس واقع التعبير اللغوي، ونستنبط من طبيعته تألف الازدواج، لتحقيق ظاهرة الإعراب، وتحديد العنصر المباشر الذي تُنسب إليه، واحداً كان أو أكثر.

### الرمز المركب

ذكرنا غير مرة أن العمل الإعرابي تعبير صوتي، للدلالة على وظائف معنوية. وهذا يعني أنه ظاهرة لغوية متميزة، العامل فيها ذو طبيعة لغوية، وليس مؤثراً مادياً أو منتجاً طبيعياً، كالحيوان والنار والماء والسلاح. إنه عناصر رمزية كما أجمع النحاة، أي: أمارات ودلالات<sup>(٢)</sup> تتطلب سلوكاً تعبيرياً، يناسبها ويحقق مقاصدها، نحو إشارات المرور والأرصفة والشوارع والأنفاق وسكك الحديد، لتوجيه أشكال السير والمواصلات في المعمورة.

(١) انظر المختصر ص ٨٨-٩١ .

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف ص ٤٦ رشح المنصل ١ : ٨٤-٨٥ .

ذلك لأن العامل في التعبير هو مصطلح علمي، وُضع لدلالة مجازية خاصة، بعيدة عن المعنى اللغوي للفظه وصيغته. فليس مقصوداً به ما يكون في العمل المادي المعروف، إذ لا مُشاحّة في الاصطلاح. وهذا شائع مشهور لدى علماء العربية، في كثير من المفاهيم النظرية: كالشاذ والفاعل والفعل الناقص والأجوف والمنقوص وحرف الجر والضرورة ونائب الفاعل... إذ لو مُحلت هذه الألفاظ على معناها اللغوي لكانت إحالات ومفارقات، تفسد الدرس العلمي والفهم النحوي المقصود.

وإذا تتبعنا مظاهر لدينا حتى الآن، من مظاهر العمل في التركيب النحوي، كان لنا أن نعرّف العامل بأنه: «ما يقتضي كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب». فهو الرمز اللغوي الذي يدل على معان تركيبية تناسبه، ويقتضي التعبير عنها بألوان من الأصوات، وجرباً أو جوازاً. إن قولك مثلاً: «جَمَعَ الضابطُ الجنودَ، لأمر القيادة سريعاً بصوته، صباحاً خارجَ الثكنة، وطلوعَ الشمسِ، بُغيةَ التدريبِ»، تجد فيه الرمز «جمع» يتضمن معاني متعددة، تشمل من قام بالجمع، ومن جرى فيه ذلك، والسبب الباعث له، والنوع الذي كان عليه، والآلة التي قامت به، والزمان والمكان اللذين امتوعباه، وما كان مصاحباً له، والغاية التي كان لها.

إنه يفتح، حين يأخذ حيزه في الأداء، دائرة واسعة تناسب محتواه في التعبير، فإذا هو ذو مقاصد متشعبة، اقتضى ذكرها مع وظائفها أيضاً، فكانت أواخر المفردات متحلية بما يؤدي ذلك. وقد لبثت تلك الدائرة مفتوحة الجنبات، تستوعب الألفاظ والأصوات، وترتبط

بعضها ببعض، حتى استوفت مداها كله. ومن ثم تيسر إغلاقها باكتفاء، وبدون حاجة إلى مزيد.

هذا في حين أنك إذا سُئِلْتَ مثلاً: ماذا فعل الضابط بالجنود؟ تقول: «جمعهم». فتكتفي بالتعبير عما سُئِلْتَ عنه، مما يعني أن الفعل هنا ذو مقصدين: القائم به ومن جرى عليه. وفي مناسبة أخرى فإنك تقرأ نحو: «مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ»، و«أَنْتَ تَجْمَعُ وَتَطْرَحُ»، و«مَنْ يَعِشْ يَرِ»، فتجد الفعل فيه محدوداً بنفسه، أو بمقصد واحد لا يقتضي غيره. ذلك أن الدائرة التي فتحها في الأداء ضيقة المجال، يملؤها وحده، أو مع عنصر آخر يكون كافياً مغنياً، إذ الغرض هو الإعلام بمجرد الفعل، أو بمجرد إيقاع الفاعل له. ولو تتطلب غير ذلك لاستمرت الدائرة مفتوحة، حتى تسم الأغراض<sup>(١)</sup>.

ثم إذا تقررت هذه الآيات الكريمة: «وَجَمَعَ فَأَوْعَى»، و«إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ»، و«رَزَقْنَاهُ رِزْقًا خَيْرًا مِمَّا يَجْمَعُونَ»، و«اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا»، و«فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ؟» و«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى»، و«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا»<sup>(٢)</sup>، ثم ماورد في هذه الأحاديث: «جَمَعَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ»<sup>(٣)</sup> و«جَمَعَ بَيْنَ صَلَاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ

(١) منفي اليب من ٦٧٦-٦٧٨.

(٢) الآيات ١٨ من سورة المعارج و١٧٣ من سورة آل عمران و٣٢ من سورة الزخرف و١٥ من سورة الشورى و٢٥ من سورة آل عمران و٣٥ من سورة الأنعام و٩٩ من سورة الكهف.

(٣) المطا من ٢٢٩.

عُذِرَ،<sup>(١)</sup> وَجَمَعَهَا إِلَيْهِ فِي سُؤَالٍ،<sup>(٢)</sup> وَلَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ كَانَ أَمَثَلًا،<sup>(٣)</sup> رَأَيْتَ الْفِعْلَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ تَخْتَلِفُ الرِّوَايَاتُ النُّحْوِيَّةُ الَّتِي يَتَطَلَّبُهَا، لَيْسَدَدُ حَاجَاتِهِ فِي التَّرْكِيبِ.

فقد يكتفي بمن نام به، وقد يقتضي معه التعليل أو السببية، أو المفعول به أو فيه، أو المفعول به أيضاً مع الظرفية الزمانية، أو مع الاستعلاء، أو مع التوكيد. ومن هذا، تلاحظ أن الدوائر التي يشغلها الفعل الواحد، بحرفه الأصلية الخالصة، ومعناه الوضعي المعجمي، تتعدد مساحاتها ومكوناتها، وتختلف حاجاتها، بحسب ما يتطلبه المَقَامُ والسياق ومُرْسِلُ الكلام، في حدود الضوابط اللغوية.

ثم إذا قصد به هذا المرسل أبعاداً مختلفة، للتعبير عن مقاصد متفاوتة، ألبسه أشكالاً متباينة من الدلالات المعجمية، مع احتفاظه بمادته الأصلية في لفظها ونسقتها، فصار له دوائر أخرى، بعدد تلك الدلالات، وفي كل منها مقتضيات تناسب الأبعاد المستهدفة. وحسبنا أن نتابع فعل الجعل في هذه الآيات التالية<sup>(٤)</sup>:

(١) سنن الترمذي ١: ٢٣٥.

(٢) سنن ابن ماجه ص ٦٤١.

(٣) الموطأ ص ٨٥.

(٤) الآيات ٦١ من سورة الفرقان و٣٠ من سورة الأنبياء و٧٠ من سورة يوسف و٣٤ من سورة الحج و٣٣ من سورة الإسراء و٥٩ من سورة الكهف و١٠ من سورة الفرقان و٥٣ من سورة طه و٨ من سورة الزمر و١٣٦ من سورة الأنعام و١٢٤ و٦٢ من سورة النحل و١٥ من سورة يوسف و١٢٥ من سورة الأنعام. وانظر الفعل ((دعا)) مثلاً، في المعاجم، لترى نماذج واسعة، وما تحتمل لفظة القول من الوظائف النحوية في الكليات لأبي البقاء ٤: ٢١-١٨.

جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ. «فاجعل»  
هنا بمعنى: خلق.

جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، أَي: وَضَعَ.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسِكَآ، أَي: شَرَعْنَا.

جَعَلْنَا لِيُؤْلِيهِ سُلْطَانًا، أَي: قَرَضْنَا.

جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا، أَي: تَمَيَّنَّا.

جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ، أَي: وَهَبَ.

جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا، أَي: صَيَّرَ.

جَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا، أَي: ظَنَّ.

جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ، مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ، نَصِيبًا، أَي: مَيِّزُوا.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، أَي: فُرِضَ تَقْدِيسُهُ.

يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، أَي: يَنْسُبُونَ وَيَحْكُمُونَ.

أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ، أَي: يُسْقِطُوهُ.

كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، أَي: يُلْقِي أَوْ

يُسَلِّطَ.

ثُمَّ تَابِعْ نَحْوَ «جَعَلْتُ عَلَى نَفْسِهَا مَشْيًا إِلَى مَسْجِدٍ قُبَاءٍ»، <sup>(١)</sup> أَي:

(١) الرُّطَا ص ٣١٤.

نَدَرْتُ، و<sup>(١)</sup> «جَعَلْتُ يَوْمِي مِنْكَ لِعَائِشَةَ»، أَي: وَهَبْتُ، وَ«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلْتُ تَمِيدُ»، <sup>(٢)</sup> أَي: أَخَذْتُ، وَمِثْلَ قَوْلِنَا: جَعَلْتُ الْقِدْرَ: أَنْزَلْتُهَا بِمَا تُنْسَكُ بِهِ، وَجَعَلْتُ لِلْعَامِلِ كَذَا عَلَى عَمَلِهِ: شَارِطْتُهُ، وَجَعَلْتُ لَهُ جُعْلًا: قَدَرْتُهُ، وَجَعَلْتُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ: رَصَفْتُهَا، وَجَعَلْتُكَ صَدِيقًا: ظَنَنْتُكَ، وَجَعَلَ اللَّهُ الزَّرَافَةَ يَدِيهَا أَطْوَلَ مِنْ رِجْلَيْهَا، أَي: أَنْشَأَهَا.

وقولك: جَعَلْتُ الْمَتَاعَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ، ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ «جَعَلْتُهُ» يَكُونُ فِيهِ بِمَعْنَى: عَمَلْتُهُ، أَوْ أَلْقَيْتُهُ، أَوْ صَيَّرْتُهُ<sup>(٣)</sup>. وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ أَنَّ «ضَرَبْنَا» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى<sup>(٤)</sup>: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» بِمَعْنَى: جَعَلْنَا، فَعُلِقَ عَلَيْهِ بِمَا يَلِي: «جَعَلْنَا أَي: أَوْجَدْنَا رِبِّيًّا»<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ أَيْضًا أَنَّ «جَعَلَ» يَكُونُ بِمَعْنَى: نَالَ، أَوْ حَكَمَ، أَوْ رَصَفَ<sup>(٦)</sup>.

فَإِذَا قَمْنَا بِتِلْكَ الْمَتَابَعَةِ تَبَدَّتْ لَنَا أُمْدَاءٌ مُتَفَارِقَةٌ، وَدَوَائِرُ مُتَدَاخِلَةٌ مُتَشَابِكَةٌ، مِنَ الْحَاجَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ، تَتَوَزَّعُ فِي أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَلَهَا بِؤْرَةٌ مُسْتَبَدَّةٌ هِيَ مَادَّةُ «جَعَلَ»، لِمَا فِيهَا مِنَ الْقُدْرَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْكَامِنَةِ.

(١) صحيح مسلم ص ١٠٨٥ .

(٢) سنن الترمذي ٩ : ٨٩ .

(٣) الكتاب ١ : ١٥٦ . والظرف يعلق بحال أو بجعل أو بمفعول ثانٍ. انظر النكت في تفسير كتاب سيبويه ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الزمر .

(٥) الفتحاحات الإتيية ٣ : ٥٩٨ . وانظر الآية ١٣ من سورة يس في تفسير الجلالين أيضاً .

(٦) انظر الفتحاحات ٤ : ٧٦ و ٧٩ و ٨٠ وتفسير البغوي ٤ : ١٣٣ .



وهذا التسلط الكبير، بضروبه الواسعة التباين والتعدد، ملحوظ في المادة المذكورة مجردة خالصة. وهو يقيم علاقات تأثر وتأثير بينه وبين العناصر المحيطة به، فتتلون بمفعولها المتنوع معانيه ووظائفه، ويكسبها بطاقاته دلالات حيوية متميزة.

تلك حال الفعل في تجرده وخلوصه. ولو أضفت إليه زيادات صرفية لظهرت تطلبات أعقد وأكثر انتشاراً. وكذلك الحال حين تصله بأحرف جر مختلفة، لأن تلك المعاني الكامنة فيه تثير منها الأحرف ما يناسبها، فتتكشف لك صور غنية من التوزع والنشاط<sup>(١)</sup>، وتزداد قدرته على العطاء والتأثير والتلون، وتفتح فيه جوانب وافرة من الحساسية والانفعال والتأثير ضمن ما حوله من عناصر الكلام.

كل هذا مرهون بمقاصد المتكلم وضوابط لغته. فهو يتناول من تلك المادة ما يعبر عن المراد، ويحيطه بمجالاته الإعرابية التي تناسب مقتضى الحال، أي: المقام والسياق، لينقل ما في نفسه وخياله وعواطفه، وبملا ما يترتب على ذلك من المعاني النحوية. وبذلك يأخذ العامل حاجاته، ويؤدي وظائفه، ويبقى بالمراد. فالمقتضيات والمقاصد والحاجات والوظائف المذكورة إنما هي مطالب العامل نفسه، لا بمعناه وحده، بل بما فيه من ازدواج لفظي معنوي.

ولتبين مشاركة اللفظ في هذه العمليات الإعرابية، نذكر ما يكون من

(١) الأبناء والنظائر ٣: ١٧٦ .

الترادف الذي يقتضي صورة واحدة من التركيب. فانت تقول: وَضَحَ الشيءُ وبدأ وانكشفَ وظهَرَ وتبيَّنَ، وقطعتُ الحبلَ وجذمتُهُ وبرتُهُ وصرمتُهُ وجذذتُهُ، لترى ما تقتضيه المجموعة الأولى عصوراً فيما أسند إليه الفعل، وما تقتضيه المجموعة الثانية هو المسند إليه وما وقع عليه الفعل، وكل لفظ في مجموعته يشارك الآخر في مقتضاه، وإن خالفه في المادة المكوِّنة، وبعض الفوارق الدقيقة من الدلالات المعجمية. وهذا يعني أن الوظائف كانت واحدة للألفاظ المختلفة، مما يؤكد أن معنى الفعل وحده ليس له التفرد بما يكون من اقتضاء وعمل.

أضف إلى هذا أنك تقول: بَانَ الأمرُ وأبَانَ وَبَيَّنَ وَتَبَيَّنَ واستبانَ، وجازَ الطفلُ الشارعَ وأجازَه واجتازَه وجاوزَه وتجاوزَه، فتجد أن الألفاظ المختلفة، للفعل الواحد هنا، تشترك في وظيفة محدودة أو وظيفتين، الأمر الذي يحقق أن المقتضى الإعرابي يترتب على حاجات الصيغ بلفظها ومعناها، مهما اختلفت صورها ومقاصدها البلاغية، مادامت تنحصر في دلالة مشتركة بينها.

ولهذا نقول: إن العامل يتضمن، بلفظه ومضمونه في المَقَام والسياق ومقصدِ التكلم وضوابط لغته، حاجات معنوية تحقق غاياته. وهذه الحاجات يكون التعبير عنها بعلامات معيَّنة، بها يتم التركيب. إنه عامل ذو جانبين متآزرين: لفظي ومعنوي، لأن الإعراب النحوي نفسه هو لفظ منحصر، يدل على وظيفة محدَّدة. وإذا كان المقتضي هو معنى نحوي، قد ترجَّح كفته في ظاهر العمل، فإن اللفظ أساس في ذلك المقتضي، يعاونه في تكرين أبعاده وحاجاته. وهذا ما عبرنا عنه بالازدواج في العمل الإعرابي.

ولِمساهمة العنصر المعنوي فيه، جاز حذفه وتكراره، وتقديمه أو تأخيره لفظاً ووتبة، بحسب مقاصد التعبير.

فالعامل إذاً ليس سبباً، إذ السبب لا يتضمن ما يقتضي الظاهرة، بل يتوقف وجودها عليه مع غيره، ولا تكون قبله ولا يجوز غيابها أو تكراره. ولذلك أيضاً لم يكن علّة<sup>(١)</sup> أو آلة، إذ كل منهما تنتج الظاهرة ويكون لها تأثير معتبر، ولم يكن شرطاً أو ركناً أو قرينة أو دليلاً، لأن هذه العناصر لا تُحذف ولا تتأخر، والركن أيضاً جزء مكوّن للظاهرة، والقرينة تشير إلى المقصود ولا تقتضيه، والدليل يؤيد الوجود ولا يتطلبه. ويُعدّ الملزوم عن هذا الميدان أيضاً، مع جواز تأخيره، ثابت لعدم تضمّنه ما يطلب العمل، وكثرة حذف معمولات مع إعرابها، خلافاً لما يلزمه.

وليس ما نحن في صدده واحداً من عوامل العلوم الأخرى، لأن العامل لدى كل منها لا يحتاج إلى الظاهرة، لتحقيق ذاته، وهي لا تحصل بغيابه أو تأخيره. إن ما نتحدث عنه عنصر مباشر للعمل، ومشارك للتركيب في طبيعته اللغوية. وذلك شأن السكّين في قطع اللحم مثلاً. فحدوث القطع عوامله كثيرة أيضاً، ولكن المباشر منها هو المقصود. فإرادة الله وتقديره، مع العادات الحركية المستخدمة، والخبرة العملية المكتسبة، والقدرات العضلية للجزار، واليد المسكة الضاغطة، والمعدن المكوّن للشفرة، والنصل المقوّم للحركات، وطراوة اللحم ومطاوعته أيضاً، والظروف الحيوية للقطع... هذه كلها تشارك في العملية

(١) إن قيل: العلة العقلية لا تؤثر بذاتها، وتقارن التأثير. قلنا: قد يؤثر العامل كثيراً عن

المذكورة. إلا أن السكين، وهي عنصر مادي مباشر، تمثل العامل الفاعل في ذلك، حين التحدث عنه. <sup>(١)</sup>

ولأن العامل الإعرابي مفهوم نحوي خالص، ذو فعاليتين لغويتين: لفظية ومعنوية، كما ذكرنا قبل، فإنه لا يمكن تحديده وتفسيره إلا بتوجه لغوي تركيب، يزاوج بين اللفظ والمعنى، على ما مرّ بنا مراراً من قبل، ثم ينحصر في العنصر المباشر وحده. ولو تفحصت ظواهر التركيب النحوي لرأيت أنه يتفق غالباً في التعبير عنها مقتضياً العامل، من وظيفة إعرابية، ولفظ يدل عليها، نحو قولنا: حضر الطلاب، وامتد الحبل، والعلم مفيد، ولا تسافر مساءً. ففي هذه الجمل، تجد الوظائف الإعرابية المتحققة موافقة للعلامات التي تناسبها. <sup>(٢)</sup>

ولكن حينما تورّد بعض الكلمات المبنية، في التركيب، تغيب معالم الوظائف النحوية والعلامات الإعرابية اللازمة لها، نحو: هذا أخطأ، وذاك أصاب، وجاء الذي هرب، ويا زيد، ونصحتك من قبل، ومتى سافرت؟ ومن أنت؟ ثم عندما تقول مثل: كفى بزيد صديقاً، ومارأيت من غريب، وربّ كاذب صدّق، وبجسبك دينار، ورجعنا عدا زيد، وأنا ثم الطفلان؟ ومساعدة العاجز واجبة، وقُتل المجرم، وعندي خاتم حديد، وهذا زيد مقبلاً... تجد تغلباً ظاهراً للفظ على الوظائف الإعرابية المطلوبة. ففي اللفظ، ورد الفاعل والمفعول به والمبتدأ والمستثنى مجرورات، والمسند مفرداً خلافاً لشئيه المسند إليه، والواقع عليه القتل مرفوعاً، والتميز مجروراً، والخبر الحقيقي منصوباً. <sup>(٣)</sup>

و قليلاً ما تتغلب الوظيفة في ذلك، نحو: ليس زيد بجبان ولا بجيلاً، وسرني حضور الطلاب والطالبات، وهذا ضارب زيد وعمراً، وضارب

زيداً وعمرو<sup>(١)</sup>. فقد نُصب «بجلاً» لأنه معطوف على منصوب محلاً،  
ورُفع «الطالبات» لعطفه على الفاعل المعنوي، ونُصب «عمراً» لعطفه على  
المفعول المعنوي، ثم جُرَّ لأن المعطوف عليه «زيداً» يجوز فيه الإضافة،  
حيث تقول: ضاربُ زيد.

وعلى هذا الأخير، حُمل قول امرئ القيس<sup>(٢)</sup>:

نَظَلُّ طُهَاةَ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضِجٍ

صَفِيفَ شِوَاءٍ، أَوْ قَدِيرٍ، مُتَجَلِّ

إذ ورد «قدِير» مجروراً، محلاً على وظيفة «صَفِيف» التي هي في موقع  
الإضافة معنًى، وإن كانت منصوبة على المفعولية. أما قول زهير<sup>(٣)</sup>:

بَدَأَ لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى،

وَلَا سَابِقِ شَيْئاً، إِذَا كَانَ جَائِئاً

فقد جُرَّ فيه «سابق» لما كان يحتمله «مدرِك» من الجر بالباء  
الزائدة.

ومن هذا القبيل ما ورد من قراءة، في نحو: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ  
تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾،<sup>(٤)</sup> بنصب «النهار» مع عدم تنوين  
«سابق»، لما في التركيب من معنى المفعولية. وكذلك قراءة: ﴿وَجَعَلَ

(١) شرح القصائد السبع للنحاس ص ١٨٣-١٨٤.

(٢) ديوانه ص ٢٢. والقدير: المطبوخ في النار.

(٣) ديوانه ص ١٦٩.

(٤) الآية ٤٠ من سورة يس.

اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا<sup>(١)</sup>، بنصب «الشمس والقمر»  
للعطف على محل «الليل» من المفعولية، كقول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ، لِحَاجَتِنَا،

أَوْ عَبْدَ رَبِّ، أَخَا عَوْنِ بْنِ بَخْرَاقٍ؟

ومنه أيضاً القراءة: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»<sup>(٣)</sup>، إذ  
التقدير: يريدُ ثوابَ الآخرة، كما جاء قول أبي دؤاد الإيادي<sup>(٤)</sup>:

أَكُلْ أَمْرِي تَحْسِبِينَ امْرَأً،

وَنَارٍ، تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ، نَاراً؟

و المراد: وكلُّ نارٍ.

ومع هذا كله، فإن الكثير الكثير في الكلام هو الاتفاق، بين الوظيفة  
التي يقتضيها العامل، واللفظ الذي يدل عليها، ليتم تحقق العمل المزدوج  
المنشود. وما ذكرناه من الخروج على ذلك، بتغلب أحدهما ظاهراً وغياب  
الآخر، هو قليل الورود، يمكن حصره في زوايا معدودة من التعبير. ولذا  
كان ما ألحنا عليه من الازدواج ضرورياً، في موضوع العمل الإعرابي،  
لتحقيق ما يقتضيه العامل في التركيب.

(١) الآية ٩٦ من سورة الأنعام.

(٢) الكتاب ١: ٨٧. دینار: اسم رجل. وعبد رب أي: عبد ربه. وهو اسم رجل أيضاً.

(٣) الآية ٦٧ من سورة الأنفال.

(٤) دبرانه ص ٣٥٣.

## مقتضيات العوامل

الكلمة المفردة، حين ترد وحدها خارج التركيب، تكون مستقلة بالدلالة الوضعية المعجمية، غير ذات حاجة إلى مساعد أو متمم، اسماً كانت أو فعلاً أو حرفاً. ومن ذلك: إنسانٌ ورجلٌ وطفلٌ وفتاةٌ، وفرسٌ وجملٌ وتُعبانٌ وعُصفورٌ، وشجرةٌ وغصنٌ وزهرةٌ وتمرٌ، وماءٌ وسماءٌ وجبلٌ وقمرٌ، وجلسَ وذهبَ ودخلَ ونامَ، ويسمعُ ويكتبُ ويلعبُ ويسألُ ويتكلمُ ويستغفرُ، واسلمَ واطلبَ واخرجُ وادفعُ، وسوفَ وليتَ وإلى وهل ولا وإنَّ ولم.

فمثل هذه المفردات غني عن العون، في دلالاته المعجمية الأساسية. وقد يحتاج بعضه كالأسماء مثلاً إلى رديف مسعف، ليتحمل معاني مجازية أو اصطلاحية أو فنية، نحو: ماءُ الحُسنِ وماءُ الشبابِ وماءُ الوجهِ وماءُ الكرمِ وماءُ السماءِ، ونارُ إبراهيمَ ونارُ البرقِ ونارُ الحُجاجِ ونارُ الحربِ ونارُ الحُمى ونارُ الحياةِ ونارُ الشوقِ، وابنُ آوى وابنُ الحربِ وابنُ السبيلِ وابنُ طامرٍ وابنُ الماءِ وابنُ الغمامِ، وتنبوعُ العينِ ودمعُ العينِ وفرضُ العينِ وعبدُ العينِ ورأسُ عينٍ ونقدُ العينِ وتُرورُ العينِ.

وفي إلحاق مثل هذه الرُدفاء يكون تفاعل بين الطرفين في اللفظ والمعنى. فالأوائل تكسب الثواني وظيفة الإضافة ولفظ الجر ظاهراً أو مقدراً، والثواني تُفقد الأوائل استقلالها والتوين اللفظي، وتلبسها مهمة المضاف لمقاصد نحوية معينة.

ثم إن كل اسم أو فعل أو حرف، مادام خارج التركيب، فهو صالح غالباً للارتباط بآلاف من المفردات، ليكون كلاماً مفيداً. فإذا دخل حيز التركيب التعبيري صار بؤرة نشطة، لمجال محدود من تلك المفردات، يتفرغ لها دون سواها ويُسْغَل بها وحدها، فيكون بينهما تفاعلان صوتي ومعنوي، كما ذكرنا منذ قليل. وبذلك يكون له اقتضاء وظائف نحوية، تحقق أبعاده ومقاصده في هذا التعبير نفسه، بحسب لفظه ومعناه ومرامي المُنْجِز للكلام، فيستقطب المفردات التي تقوم بتلك الوظائف، حتى تملأ حاجاته وتسدد مطالبه، وتتم الدائرة المفتحة بحضوره.

وإذا كانت هذه المفردات مما يفعل آخره، بِسِمَاتِ الوظائف التي يعملها، اقتضى فيها المذكورُ علاماتٍ تحدد لكل منها وظيفتها المشغولة بها، وتقدم لهذه البؤرة النشطة حاجاتها الصوتية التي تملأ الشطر اللفظي من الازدراج، وحاجاتها المعنوية بالوظائف الجديدة. وإلا كان في السياق ما يدل على ذلك، وغنى عن العلاج الصوتي. ومن هذين المنطلقين العمليين يحق لنا أن نقول: لا عمل نحوياً بدون اقتضاء تركيبي، وإنما كان للعامل وظائفه في المعمولات لاقتضائه إياها<sup>(١)</sup>.

وقد ظهر لنا، فيما مضى، أن المراد بلفظ الكلمة هو: المادة اللغوية بدلالاتها، والصيغة المكوّنة بمدلولها، وأن المقصود بالمعنى هو الدلالات النحوية المضمّنة، وأن المعنى بمرامي التكلم هو الأبعاد التركيبية التي استهدفها بعبارته، أي: ما يناسب مقتضى الحال، من حاجات المَقَام



والكلام. ومجمل هذا كله يتطلب الوظائف المعبرة والعلامات الدالة عليها، وهذه وتيك وتلك وهاتيك تختلف من سياق إلى آخر، بحسب العناصر الحاضرة في مضمون الكلام. ولذا قلنا: إن العامل هو ما يقتضي وظائف نحوية، وعلامات إعرابية تخصّصها وتحدّد هُويّتها، في مجال التركيب النحوي. هذا مع العلم أن العامل قد يغيب لفظه أو يُضمر، فيُجزئ عنه العنصران الآخران: المعنى النحوي، ومراد مرسل الكلام.

ومن ثمّ كان الفعل أظهر أقسام الكلم، في إجراء عملية التبشير هذه، إذ هو ذو حيوية متشعبة، وحاجات متعددة، يصلح للقيام بوظيفة المركزية النشطة المستقطبة. والسبب في هذا ما يتضمنه الفعل من معنى الحدث،<sup>(١)</sup> والعلاقات الإنسانية والزمانية والمكانية والسببية... وكذلك شأن الأسماء التي تتضمن الدلالة على الحدث مجرداً أو مضافاً إليه غيره. فالصادر الصريحة والمستتقات الوصفية، إذا لازمت وظائفها الصرفية، ولم تنتقل إلى حيز أسماء الذوات، فإنها تشبه الفعل في هذا المضمار، فتقتضي الوظائف والعلامات الإعرابية المخصّصة، تبعاً للضوابط اللغوية المتعارفة.

بل إن حروف المعاني كثيراً ما تشارك، في عملية الاقتضاء هذه، لما تدل عليه من أحداث قاصدة. فالهمزة مثلاً قد تعني<sup>(٢)</sup>: أنادي، و«ليت» معناها: أتمنى، و«كان» يراد بها: أشبه، و«إن» تحضر لإرادة: أشرط،

(١) انظر الخصائص ٢: ٢٧٧.

(٢) الخصائص ٢: ٢٧٤-٢٧٦.

و«في» تكون للحيازة المكانية أو الزمانية، و«لن» يراد بها النفي المستقبلي، و«لم» تعني النفي الماضي القاطع، واللام ترد لمقصد الاستحقاق أو الملك أو الاختصاص أو العلة أو السبب، والباء للإلصاق أو التعدية أو الامتئاع أو السبية أو البذل أو المقابلة أو القسم...

ومع هذا فإنك ترى كثيراً، من حروف المعاني، مهملاً عاطلاً عن العمل. وتفسير النحاة لذلك أن الحرف، إذا كان مختصاً بالاسماء أو الأفعال، ولم يكن كالجزم منها، يعمل فيها، وإلا كان مهملاً<sup>(١)</sup>. ويرد عليهم أن ثمة ما يخالف قولهم، من حروف عوامل أو عوامل تخرج على شرطهم، بالإضافة إلى ما ذكرناه من جواز الإعمال والإهمال لكثير من الحروف أحياناً.

والحق أن الأصل في المفردات ألا يعمل بعضها في بعض، بخلاف الأصوات. فعدم العمل للحرف أصل في الكلام، وما كان أصلاً موضوعاً لا يُسأل عن علة له أو تفسير. وإنما يكون التفسير والتعليل لما خرج عن الأصل، كما يقول علماء الأصول. أضف إلى هذا أن الحرف المذكور يدخل التركيب لمقصد معنوي، وهو في حضوره أو غيابه يؤدي المعنى المراد به، أي: أنه يقوم بعمله المعنوي-الأصيل في التعبير، فليس مطالباً بتأدية وظيفة ثانية، إلا إذا كان ثمة ما يُخرج إلى ذلك.

(١) معاني الحروف ص ٣٦ و ٤٢ و درصف المباني ص ١٠٧ و ١٠٨ و ١٢٣ والجني الداني ص ٢٦-

وعندما يرسل المتكلم أحد العناصر العاملة، تكون مقتضياته حاضرةً في أجهزة التركيب لديه، فتتفتح الدارة المرسومة في ذهنه، تستدعي الوظائف والعلامات المحققة لحاجاتها، حتى تسترعب العبارة جميع المعمولات، فتمتلئ الدارة وتلتئم. واستجابة المتلقي لهذا كله يوجهها مقتضى الحال، أي: ظروفُ المقام والكلام. حتى إذا صدر عن المتكلم عاملٌ ما، في مقام معيّن، انفتحت لدى المتلقي دارة تناظر تلك، واستمر يتتبع التعبير إلى أن يلتئم شمل التركيب، ويتم مقصد التعبير. وإلاّ بقيت الشُّرّات مفتوحة ترقب المزيد من العطاء.

هذا هو الاقتضاء العام للعوامل الأصلية، ليما تحمله من معنى الحدث الحيوي النشط. ثم ترى العوامل الفرعية في تضاعيف التركيب موزعة، بمستويات مختلفة ومقتضيات متفاوتة. فالحرف المشبه بالفعل مثلاً يتطلب جزأين، ثانيهما مصدره كالمفعول في المعنى، لأن هذا الحرف يتضمن وظيفة الفعل المتعدي، لشبهه به في اللفظ والمعنى<sup>(١)</sup>، ولا بد له من مفعول، هو مصدر المرفوع مسنداً في المعنى إلى المنصوب.

فقولي: إنّ الجهاد واجب، وأعتقد أنك مخلص، وكأنّ الطفل نائم، ولكنّ الصباح مقبل، وليت الشباب عائد، ولعل أخاك ناجح، ولا منافق صادق، يعني: أؤكد وجوب الجهاد، وأعتقد توكيدي إخلاصك، وأظن نوم الطفل، وأستدرك إقبال الصباح، وأتمنى عودة الشباب، وأترجى نجاح أخيك، وأنفي صدق المنافق. ولذا يقتضي<sup>(١)</sup> ورود هذا الحرف، في التعبير، أن يليه عنصران اثنان يتحقق فيهما ذلك المعنى المطروح.

(١) انظر شرح الكافية ١: ١٠٩-١١٠.

إن الواحد من هذه الأحرف يتطلب شيئاً مؤكداً، أو معتقداً أو مظهرناً أو مستدرَكاً أو متمنى أو مترجى أو منفياً، يُنسب إلى شيء آخر، ليتم المعنى التركيبي الذي أنشئ من أجله التعبير. وقد كان هذا حاضراً في أذهان النحاة، حين وضعوا قواعد التنظير والتطبيق، وعبر عنه بعضهم في مثل قوله: «إن: تدخل على مبتدأ وخبر... وإن: تقتضيها جميعاً. فإذا عملت في الاسم الأول، لاقتضائها إياه، عملت في الثاني كذلك»<sup>(١)</sup>. وفي حديثه عن<sup>(٢)</sup> «لا» الثبوتية، ذكر أيضاً أنها تقتضي اسمين، وقد عملت في أحدهما، فهي تعمل في الآخر مثل «إن». وهذا الزغشري ينص أيضاً، على أن «كان» تقتضي مشبهاً ومشبهاً به، وهي عاملة في الجزأين معاً<sup>(٣)</sup>.

أما الفعل الناقص<sup>(٤)</sup> فيتطلب جزأين أيضاً، يُسند إليه مصدر ثانيهما كفاعل في المعنى منسوب إلى الآخر، لأن هذا الناقص يتضمن وظيفة الفعل اللازم، ولا بد له من فاعل، هو مصدر المنصوب مسنداً في المعنى إلى المرفوع. فإذا قلت: كان الدواء نافعاً، وأصبح الماء جامداً، وصار الهواء بارداً، وظل التلميذ غائباً، ومادام العدو بعيداً، وبدأ الظلام ينحسر، فإنما تعني: حدث نفع الدواء، وحصل جود الماء، وحدث برودة الهواء، ودام غياب التلميذ، وحين استمر بعد العدو، وبدأ انحسار

(١) التبيين عن ملابب التحريين ص ٣٣٣-٣٣٤ و ٣٤٣.

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٩.

(٣) الفصل ص ١٣ وشرحه ٨٥ و ١٠٢.

(٤) شرح الكافية ٢: ٢٩١. وإذا استعمل لفظ هذا الفعل تاماً فإنه يكون نعلماً لازماً يقتضي ناعلاً له أيضاً. انظر المورد التحري الكبير ص ١٢-١٤.

الظلام. وبناء على هذا، ترى الفعل المذكور يستدعي ما يكون من شأنه ملء الفراغ المرسوم، فيقتضي العنصرين المحققين لذلك.

وإنما تُستثنى «إنّ وما ولا ولات»<sup>(١)</sup> من وظيفة «إنّ» وأخواتها، لأنها تُشبه بالفعل الناقص عامة، وتلحق به في الدلالة النحوية، وتقتضي مثله مسنداً إلى فعل لازم. فتقولك: إنّ زيداً ناجحاً، وما أخوك مريضاً، ولا جهلاً نافعاً، يعني: انتفى نجاح زيد ومرض أخيك ونفع الجهل. ويقابل هذه الأحرف الأربعة استثناء «ليس وعسى» من الأفعال الناقصة، لأنها مع كونها منها هما أقرب إلى «إنّ» وأخواتها. ولذا تلحقان بالأدوات، فتكون الأولى للنفي والثانية للتوقع. فقولي: ليس الكذب محموداً، وعسى زيد أن ينجح، يعني: أنفي حمد الكذب، وأتوقع نجاح زيد.

ولهذا الفارق الظاهر في الدلالة النحوية، بين مجموعتي «إنّ» و«كان»، أعطيت العربية كلاّ منهما أسلوباً خاصاً يخالف الآخر، فكان للأولى نصب الاسم ورفع الخبر، وللثانية رفع الاسم ونصب الخبر. ثم وقع بينهما ما هو مشترك لكل منهما في الشكل والدلالة، أعني زمري «إنّ» الحرفية و«ليس» الفعلية. ولما كانت هذه الدلالة غالبة في الميدان النحوي انحازت الزمرة الأولى الحرفية إلى وظيفة «كان»، والزمرة الثانية الفعلية إلى

(١) تلازم هذه الكلمات الأربع حيز الحرفية، لأنها بعيدة جداً عن خصائص الأفعال. فهي تشارك «(إنّ)» في الصيغة، و«(كان)» في الوظيفة، فتكون مشبهة بالفعل الناقص. وعمل العكس من هذا «(ليس وعسى)»، لأنها يشاركان «(إنّ)» في الوظيفة، و«(كان)» في الصيغة، فيكونان تملين يقتضي كل منهما ما تقتضيه «(إنّ)» وأخواتها.

وظيفة «إنّ». والأصل المعتدّ به، في هذه الظواهر التعبيرية العملية، أن العامل في الاسم هو ما تعلق معناه النحوي به<sup>(١)</sup>.

وهذه الأمداء، من المقتضيات لِمَا ذُكِرْتُ، هي أخصر مجال لما يدل على الحدث، من أفعال ومصادر ومشتقات، وأفعال ناقصة وأحرف مشبهة بالفعل. فإذا كان للمقام والمقال متطلبات فرعية استحضرها التركيب أيضاً، لتحقق مقاصد الكلام. وذلك بورود مفعولات متعددة، وجمل وأشباهها تكون في مواقع المفعولات، فيقدّر في العبارة ما يُظهر الوظائف الخفية، والعلامات الدالة عليها. وتلك أمور معقدة، لا يتيسر تفصيلها الآن.

ولذا كانت المفردات، التي تتضمن معنى الحدث، أصلاً في ميدان العمل الإعرابي. فهي ذات نشاط لغوي ظاهر، تستطيع أن تستقطب عدداً من المفعولات التركيبية: الفاعل ونائبه والمفعولات المعروفة، تشدها إلى البؤرة التي تحتلها بظواهر صوتية مقنّنة، وتكوّن معها وحدة تعبيرية متماسكة. وهذا ماثبِتاً نماذج، في الصفحات الماضية، مع الأمثلة والتوضيح اللازم.

فإذا غادرنا تلك العوامل الظاهرة السلطان، لِمَا فيها من معنى الحدث، استقبلتنا عناصر تركيبية، يشملها ما زعمنا من نظرية الانتضاء، كالمضاف والموصوف والمبهم وصاحب الحال. وهذه، حين تكون مجردة

(١) انظر الباب ١: ٢٧٩.

من الدلالة على الحدث، يقتضي كل منها كلمة واحدة تتمم معناه النحوي، في ظلال المقام وسياق الكلام وضوابط اللغة.

إنها محدودة الحاجات لفقرها الحداثي، وتستهدف المعمولات لعجزها عن القيام وحدها بر وظائف التعبير. فالمضاف في التركيب مثلاً لفظ فاقد الاستقلال، ولا بد له من ملحق به يمنحه ما فقده، ويخصه أو يعرفه أو يمدحه أو يذمه. فلو قلت: «أصبح كتابُ جاهزاً، وحضر بائعُ» كان قولك قاصراً عن الفائدة، إذ كل من «كتابُ» و«بائعُ» يقتضي ما يحقق الاستقلال وعملاً الفراغ التعبيري، بمثل قولك: أصبح كتابُ النحو جاهزاً، وحضر بائعُ الفاكهة. ولذا يكون المضاف إليه من معمولات المضاف نفسه. ونظير هذا ما يرد بعد حروف الجر، لأنها تتطلب في التركيب ما يدل على الإضافة، أي: إيصال أحداث أو أسماء إلى الأسماء، ويطلق عليها أحياناً: حروف الإضافة.

والموصوف أيضاً قاصر عن الاستقلال، ويقتضي ما يرد إليه اعتباره، فإليه تابع له مستظل بحماه متأثر به<sup>(١)</sup>. والبدل محتاج، في التركيب النحوي، إلى ما يبيته أو يزكده أو ينوب عنه، ويكون تابعاً له في الإعراب. وكذلك شأن ما يحتمل المجاز، تجده مفتقراً إلى ما يثبت المعنى الحقيقي له، مؤكداً وتابعاً في الإعراب أيضاً. أما المتبوع في النسق فيعتمد على حرف العطف، ليكون له ما يتبعه وينفعل به. فالاسم المعطوف

(١) انظر الحجة للقراء السبعة ١: ٤٠-٤٣.

عليه هو العامل في المعطوف. وهذا قريب من واو المصاحبة التي يعتمد الفعل عليها، لنصب المفعول معه.

والمميز مبهم لا يحقق الفائدة التعبيرية، إلا إذا كان له معمول يعين نوعه. فقولك «عندي عشرون» مبهم فيه العدد، يحتمل آلاف المعدودات، ويبقى على إبهامه حتى تذكر معه معدوداً مفسراً، كأن تقول مثلاً: «عندي عشرون كتاباً». وعلى هذا يكون المميز هو العامل في التمييز، لأنه أشبه اسم الفاعل المتعدي، وهو مفتقر إلى الاسم الذي بعده، يقتضيه لتمام أبعاده ووظيفته التركيبية<sup>(١)</sup>. وصاحب الهيئة في الكلام أيضاً يلبث فيه عاجزاً عن الدلالة التركيبية، حتى يردّ معه لفظ الحال المنصوبة.

وحرف النداء ينوب عن الفعل المعبر عنه: أدعو، فيقتضي تعيين المنبه الموجه إليه الخطاب، نحو: يا بنّ أخي، يا عبد الرحمن، وا بني عمّاه، أيا مالك الدار. وحرف الاستثناء كذلك ينوب عن الفعل، ليدل على ما أخرجناه من الحكم، فيقتضي وظيفة المنصوب، نحو: نجيح الطلاب إلا خمسة، ولقيت الأصدقاء إلا سالماً، وحضر المدعوون إلا واحداً. فإذا ألقينا الاستثناء بالنفي أو النهي، مع إزالة المستثنى منه، صارت «إلا» لتوكيد الحكم بالحصص، وارتبطت وظيفة ما بعدها بما يتضمن ذلك الحكم.

ومن هذا ترى أن ما أوردناه، من موصوف أو مبدل أو مؤكّد أو معطوف، وأصحاب حال أو منادى أو مستثنى، قد كان بينه وبين العناصر المقتضيات تفاعلاً لفظي ومعنوي أيضاً. فالأوائل حلت

(١) الباب ١: ٢٩٦-٢٩٧.



الثواني وظائف تركيبية محدثة وأصواتاً إعرابية توضح ذلك، والثواني منحت الأوائل تحلية أو بياناً أو تحقيقاً أو تبعية أو تعيين هيئة أو تخصيص مقصود أو تحديد كمية، وسلبت أكثرها استقلاليتها وبعض مظاهرها الصوتية.

أما المبتدأ فأمره، في مقتضيات الإعراب، خاص متميز يعود بنا إلى مرتبة الأصالة النحوية. فالمفردات المنفصلة إذا دخلت التركيب ابتداءً، أي من دون مقتض ملفوظ أو مقدر، كان لها وظيفة ما يُبتدأ به مستقلاً عن التأثير بما حوله، وحملت علامة الرفع دلالة على ذلك، إذ الرفع أول ضروب التلوين الصوتي<sup>(١)</sup>، وأقواها ارتباطاً بالأصالة التعبيرية. ولذلك كانت علامة الإسناد، وما يُحمل عليه، في التركيب هي الرفع.

فأنت، حين تسرد مفردات من المُعَرَّبَات مطلقة مستقلة عن التركيب، توردها كما يلي: طفلٌ وكتابٌ وطائرٌ وقمحٌ وفنأةٌ، واحدٌ اثنانِ ثلاثة<sup>(٢)</sup>. وإذا ذكرت اسماً وحده، من دون قصد لتكوين عبارة مفيدة، كان بمنزلة صوت تصوته، كأن تقول «زيدٌ» وتسكت<sup>(٣)</sup>. فهذا الاسم لا يستحق الإعراب، وإنما كان له تنوين الرفع للدلالة على الاسمية

(١) الإيضاح في علل الشعر ص ١٢٤ .

(٢) هذا خلاف ما ذكره سيويه والزجاج وابن جني. انظر شرح قطر الندى ص ١١٦-١١٧ والكتاب ٢ : ٣٤ ومعاني القرآن وإعرابه ١ : ٥٩ وصر صراحة الإعراب ص ٧٨٣ . ويستثنى من هذا الحكم ما يكون سرداً ، كتهجي حروف المعجم : ألف باء تاء ثاء جيم ، وكلفظ الحروف في مطالع بعض سور القرآن الكريم . الكتاب ٢ : ٢٤ والمقتضب ١ : ٢٣٦-٢٣٧ و٤ : ٤٣ والإنصاف ص ٧٤٢-٧٤٥ .

(٣) المقتصد ص ٢١٤ و٢٥٧ وشرح النصل ١ : ٨٤ .

والاستقلال والانفصال، وللإشعار أنه غير مضاف إلى ما بعده، ولا متصل به<sup>(١)</sup>.

وكذلك تكون المفردات في المعاجم، إذ ترد محكية بالرفع، لبتيسر تفسيرها وبيان معانيها. فإن كان ورودها مصدرة لوظيفة الابتداء، ولتكون معتمدًا فائدة بخبر، تحقق أن رفعها ملازم لها بالوضع، لا يحيد عنه ولا محالة.

والقول المحقق لدى جمهور البصريين أن المبتدأ يرتفع بالابتداء، نعني أوليته كما جاء في النظرية اللفظية، أي: كونه أولاً مقتضياً ثانياً<sup>(٢)</sup>. وهذا يعني أن الرفع هو علامة وضعية أصيلة تلازم الأسماء المنفصلة بالإعراب، إذا تجردت من مقتضيات ملفوظة أو مقدرة، وهو كاف للدالة على ارتباط الأوليّة بتلك العلامة التي هي، في عرف النحاة، رمز إلى الإسناد.

ومن ثم، فإن إرادة الابتداء بالأسماء تقتضي ما يسند إليه معنى ذو فائدة، أي: مبتدأ يمثل الوظيفة الوضعية الأوليّة، فيكون الاسم المرفوع لذلك منطلق التعبير، وغنيًا عن العوامل المصطنعة التي اختلف في تقديرها النحاة. إنه صاحب الوظيفة البدائية الأوليّة، أعني أنه أصل في التعبير والتركيب، وما كان أصلاً وضعياً لم يُسأل عن علته وعوامله، كما هو مشهور بين العلماء. وإنما يكون ذلك السؤال عما هو فرع أو فريع.

(١) انظر أمالي السهلي ص ٢٤-٢٦.

(٢) التبيين ص ٢٢٤-٢٢٥.

فحضور المبتدأ في التعبير، بلفظه ومعناه ومقصد المتكلم وضوابط اللغة أيضاً، يحقق معنى الابتداء الآتلي، ويقتضي ما هو ذو دلالة على الخبرية، أي: الفائدة، لتتم دارته التي فتحت ويُغلق الإطار. وهذا مفاد ما ذكرنا في قول جمهور البصريين، حين رأوا المبتدأ مقتضياً لثان، وذلك الثاني حديث عنه<sup>(١)</sup>. فلا غرر أن يرد الاسم المقتضى مرفوعاً لهذه الوظيفة، شبيهاً بما هو نفسه في المعنى، نحو: زيدٌ كريمٌ، والماء نافعٌ، والعلم نورٌ، ويكون خبراً والعامل فيه هو المبتدأ، الذي اقتضاه لتحقيق الفائدة التعبيرية.

فإذا ورد أحد النواسخ، قبل ذلك، اضمحل معنى الابتداء، ودخل التركيب في حيز آخر من المقتضيات لكمال التعبير. وهذا ما قد أوضحنا من قبلُ صوره في الأفعال الناقصة، والأحرف المشبهة بالفعل التام أو الناقص. وقريب من ذلك ما تراءى في أفعال القلوب، لأن كلاً منها إذا وُظف في التعبير، بكامل دلالة الوضعية ومقاصده التركيبية، فإنه يختص بالمبتدأ والخبر أيضاً، وينزع عنهما وظيفتهما النحوية، ليدخلهما دائرة جديدة هو صانعها والمتفرد بالعمل فيها.

ولذا يكون هو نفسه العاملَ فيهما ما نعرفه بالنصب. وعلى سبيل المثال فإن قولك «ظننت» يقتضي الفعلُ منه مظهرين، ليكونا مفعولين له ينصبهما هو بنفسه<sup>(٢)</sup>.

(١) المقصد ص ٢١٥.

(٢) حاشية شرح الكافية ١: ٢٩٩.

وكذلك شأن العلم والدراية والحسبان والحَيَلان والزرعم... ويمكنك أن تقيس على هذا سائر الأفعال التي تتطلب مفعولين، مبتدأ وخبراً كانا في الأصل أو غير ذلك. فما يدل على التصيير يقتضي ما يصيّر وما يصيّر إليه. وما يدل على العطاء يقتضي ما يُعطى ومن يعطاه... ولا يتم المعنى التركيبي لكل من هذه الأفعال وتلك، حتى يستقطب عنصرين، يكون كل منهما مفعولاً منصوباً أو في محل نصب.

والفعل المضارع شبيه بالمبتدأ، في هذه الصفة، إذ يكون له الرفع بالأوليّة، أي: بالوضع ابتداءً أيضاً كحاله حين يورد، مستقلاً خارج التعبير. وعلى هذا نقول: يذهب ويتعلم ويتراضع ويستقبل، ثم تجدد أمثال هذه المفردات، في متون المعاجم، عكسية بالرفع وهي دون تركيب. فإذا دخلت في التعبير ابتداءً أيضاً، أي: دون مقتضى للأفعال ملفوظ أو مقدر، كان معها علامة الرفع، إشعاراً بذلك الموقع الوضعي الأولي.

فقولك: «يضرب زيد» يُرفع فيه الفعل المضارع، لأنه وقع في التركيب كالمبتدأ، ومن ابتداءً كلاماً مستقلاً من الصمت إلى النطق لا يلزمه أن يكون أول كلامه اسماً أو فعلاً، وله الخيار في ذلك<sup>(١)</sup>. فلفظك الفعل أولاً شبيه بلفظ المبتدأ، مجرداً من المقتضيات الإعرابية، وهو يدخل التركيب بصورته البدائية الأوليّة، أي: حاملاً صورة الرفع. وكذلك

(١) الفصل ص ١٠٩ وشرحه ٨: ١٢.

شأنه حين يتوضع داخل العبارة، مستقلاً عن مقتضيات النصب أو الجزم، لأنه يحتفظ بصورته الوضعية البدائية. ولهذا ترى نحو قولنا: أخوك يتعلم، والكريم ينصح، وإن الصدق ينفع، وأصبح الماء يترقق، وظللتُ المسافر يعود، فيه المضارع مرفوع لأوليته المذكورة، وإن لم يكن في أول الكلام.

ثم إن العوامل في الأفعال شأنها شأن العوامل في الأسماء. فهي تلغي معنى الابتداء الأولي للفعل المضارع، وتولد في التركيب ما يناسبها من المقتضيات والعلامات المعبرة. فالنواصب مثلاً تقتضي ما يدل على المستقبل المفتوح، في حين أن الجوازم تقتضي ما يعبر عن القطع في الماضي أو المستقبل، والجوازم لفعلين متطلبها حدثان مترابطان، مسبب أحدهما عن الآخر قطعاً، حقيقة أو مجازاً أو افتراضاً.

فحرف الشرط الجازم عندما يستخدم في التركيب اللغوي يقتضي جواب الشرط، كما يقتضي فعل الشرط. ولأنه يعمل في الفعل الأول، فإنه يجب أن يعمل في الثاني أيضاً. ذلك لأن اقتضاءه لهما معاً يوجب له العمل فيهما معاً، قياساً على نظائره من العوامل في عنصرين، أمثال «كان» وأخواتها، و«إن» وأخواتها، وأفعال الظن واليقين، وخلافاً للحرف الجازم، الذي يقتضي فعلاً واحداً ليس إلا، فيكون محدود التطلب والفاعلية<sup>(١)</sup>.

(١) الإيضاح من ٦٠٨-٦٠٩ واللباب ٢: ٥١.

وهذا تكون تلك العناصر المقتضية هي العامل الأساسي المباشر، في الحقول المذكورة. وعلى مثل ذلك المنوال، تستطيع أن تتقري سائر مواقع العوامل، في مجالات التركيب، لتبين ما تحتاج إليه من معمولات تسد مفاقرها، بالوظائف والعلامات الدالة عليها، وتملاً الفراغات التي تطرحها في التعبير، وتغلق الدارات المفتحة بحضورها. وليس من اليسير استيعاب ذلك كله، في مثل هذا المقام، بعد أن وضعنا مفتاح القضية بين أيدي الباحثين. فحسبنا أننا رسمنا الخطه، ونفذنا صوراً منها، بالدليل والبرهان، وأطلقنا الباب على مصراعيه لمن يريد المتابعة والاستيعاب.

### العمل والاصطلاح الإعرابي

لكي تتضح هذه العلاقات الإعرابية، في الأذهان، ويظهر معنى العمل المقتضى في التركيب، يحسن بنا أن نقف إزاء بعض المصطلحات الأساسية في النحر، لبيان المفاهيم وتوضيح الدلالة المقصودة. فالحديث هو العمل والفعل، أي: وقوع الشيء. وتسميته مصدراً تعني أنه المكان الذي صدرت عنه المشتقات، من الأفعال والأسماء. وهذه تتضمن معناه الحركي، ودلالات صيغها الخاصة بها، وتقتضي ما يملأ حيزها من معمولات المختلفة.

أما الاسم عامة فلفظ يدل على ما يُسمى به. وإنما أغفل بعض النحاة تعريفه، لأنه يتضمن الدلالة الوضعية له، وليس له مفهوم اصطلاحى مجازي. فإذا تجرد من معنى الحدث، في التركيب، انحصرت مقتضياته في

دائرة ضيقة، كما ذكرنا قبل، فكان مضافاً أو موصوفاً أو مؤكّداً أو مميّزاً أو مبتدأ. وحيث يتطلب ما يفي حاجاته ويحقق الوظائف اللازمة بعلاماتها المخصوصة. ولكنه إذا كان يتضمن الدلالة على حَدَث فإنه يقتضي، بالإضافة إلى حاجاته الخاصة، حاجات عملية تناسب ما يتضمنه، ليملاً الدارة التي فتحت لذلك. وهو في الحالتين ذو عمل مزدوج<sup>(١)</sup>: لفظي يظهر أو يقدر في العناصر المقتضيات، ومعنوي ينعكس على تلك العناصر، فيستوعبه السياق ويؤديه الكلام.

وأما الفعل فلفظ يدل على الحَدَث والزمان بالاشتقاق والصيغة، أي<sup>(٢)</sup>: على المصدر بأحرفه وعلى الظرف بحركاته. وهو أيضاً يتضمن معنى في الفاعل، فيقتضي ما يكون غبراً عنه بالحَدَث المذكور، في الزمن المحصّل، ليعمل فيه عمله المزدوج أيضاً، بالرفع للفظ وبالدلالة الفعلية للتعبير. ذلك لأن الفعل عمل قام به الفاعل غالباً، أي: أنه مفعول في المعنى لهذا الاسم الذي أسند إليه، لأن نحو: قام زيد، تقديره: فعل زيد قياماً<sup>(٣)</sup>. ولهذا فإن مصطلح «فِعْل» كان على صيغة من الأوزان الدالة على اسم المفعول مثل: طحن وطرّح وقسم، بمعنى: مطحون ومطروح ومقسوم.

وأما الحرف فلفظ يدل على معنى تركيبى، تحدده مناسبات البَقام والسياق، ويتضمن دلالة على الحَدَث أيضاً، كالنداء والاستفهام

(١) انظر المقصد من ٨٨-٩١.

(٢) الباب ١: ٢٧٢.

(٣) انظر الإيضاح في علل النحر من ٥٦.

والنسوية والنفي، والنهي والأمر والحض والتمني والترجي. فإن كان مما يقتضي جملة استغنى عن العمل اللفظي، لأنه ليس ذا سلطة عليها، واكتفى بالعمل المعنوي الذي أضافه إليها. وهذا تراه في مثل: الاستفهام والنفي والجواب والتحقيق والتسويق والتنبيه.

وإن كان يقتضي اسماً، ليربطه بلفظ آخر، تطلب وظائف مايجر أو ينصب أو يرفع. وإن كان يقتضي الفعل، للتعبير عن قطع فيه أو انفتاح، احتاج إلى ما يحقق وظيفة المجزوم أو المنصوب. وفي كلتا الحالتين الأخيرتين، يكون له العمل المزدوج في اللفظ والمعنى، كما رأينا قبل في الاسم والفعل.

والفاعل: ما أسند إليه فعل، أي حَدَّثَ، مبني للمعلوم قبله. وسواء أكان هذا الحَدَّثَ في إحدى صيغ الأفعال أم كان في إحدى صيغ الأسماء. فالفاعل لفظ يدل على من أوقع ذلك الحدث، حقيقة أو مجازاً. إنه ذو صلتين متقابلتين بالفعل: يحدثه فيفعله معنى، ويشغل به فيرتفع لفظاً. ولهذا زعمنا أن الفعل مفعول للفاعل في المعنى.

والمراد بالمفعول به: ما فُعِلَ الحدث به. فهو لفظ يدل على ما وقع به الفعل. وأما المفعول فيه فما فُعِلَ الحدث فيه، أي: اللفظ الذي وقع الفعل في زمانه أو مكانه. وأما المفعول له فما فُعِلَ الحدث لوجوده، أي: اللفظ الذي وقع الفعل بسببه أو لأجله. وأما المفعول معه فما فُعِلَ الحدث بمصاحبه، أي: اللفظ الذي يدل على ما وقع الفعل مصاحباً له.



والمفعول المطلق هو ما يؤكد به أو يبين مصدر فعله . يعني أنه لفظ يدل<sup>(١)</sup> على تأكيد ما يتضمنه الفعل من الحدث،<sup>(٢)</sup> أو بيان نوع من أنواعه المختلفة مع التوكيد، لأن قولك: فرحت كثيراً، وتجاوزنا تجاوز العلماء، تقديره: فعلت فرحاً كثيراً، وفعلنا تجاوزاً تجاوز العلماء. والمفعول المطلق تأكيد للحدث المضمر.

و«المطلق» في قول النحاة لا يعني، وهو المؤكد أو المبين، أنه بدون قيد. وإنما يريدون به أنه مطلق، من التقيد بما ورد في غيره من المفعولات. أعني «به، وفيه، وله، ومعه». ولهذا أخرنا ذكره بعد تلك الفاعيل، إذ بها يتبين تميزه وانفراده.

وقول بعضهم: «هو وحده المفعول، دون الفاعيل الأخرى»، فيه نظر، لأن المفعول الوحيد الحقيقي هو المصدر الذي يتضمنه الفعل، وهذا يؤكد له أو يبين مع التوكيد كما ذكرنا. ولما غاب ذلك مضمناً في الفعل تلبس هذا الملفوظ وظيفته، وكان فيه تأكيد له أيضاً.

ثم إذا كان في المفعول المطلق المبين للنوع ضرب من التقيد، فإن القيد هو في الحقيقة للمفعول المطلق نفسه لا للحدث الذي يتضمنه الفعل قبلهما. ذلك لأن «كثيراً» هو صفة لـ «فرحاً»، كما رأيت، و«العلماء» هو تخصيص لـ «تجاوز» يخرج من حيز التنكير، ويبقى الحدث الأصلي على إطلاقه المعهود. أضف إلى هذا أن في حذف الموصرف أو ورود المضاف إليه ضرباً من التوكيد للمصدر المضمن أيضاً.

(١) الباب ١: ٢٦١-٢٦٢ .

(٢) شرح الكافية ١: ١٢٢ .

ومن هذا نرى أن الضمير المستتر، في لفظ «المطلق»<sup>(١)</sup> هو للمصدر أي: الحدث الذي يتضمنه الفعل العامل نفسه، إذ المراد أن مصدر ذلك الفعل لم يقيّد مع هذا المفعول بشيء من تلك القيود. وقد خُلع في الأربعة الأولى ذلك الضمير المذكور من لفظ «مفعول» حين ألحق به شبه جملة، ونابت عن الضمير<sup>(٢)</sup> في كل منها شبه الجملة تلك، أي: به، أو فيه، أو له، أو معه.

ومثل هذا كثير في الكلام، نحو<sup>(٣)</sup>: مضاف إليه، ومعطوف عليه، وموثوق به، ومزمل فيه، ومنضوب عليه، ومهروب منه، ومرضي عنه، ومشغول به، ومختلف فيه، ومتفق عليه... غير أن أكثر الدارسين والباحثين غاب عنهم ذلك المقصود، فتوهموا أن الضمير يعود على الاسم المنصوب، وكان منهم إحالات ومزاعم وخلافات لانت إلى النحو بصلة.

نقد تبين، من تفسير هذه المصطلحات، أن الحَدَث أصل في كل منها. فهو يجري مقتضياً المعمولات التي تملأ حيز حاجاته<sup>(٤)</sup>: مَنْ قام به أولاً، ثم منصوبات يقع هو بواحد منها، وفي ثان، ولوجود ثالث، ولصاحبة رابع، ولتوكيده أو بيان نوعه مع التوكيد بخامس. فلا غرو أن

(١) إنما استر الضمير في «المطلق» لأنه صفة لـ «المفعول» الذي صار بالوصف بعده اسم جنس.

(٢) انظر ص ١١٩ من حاشية العطار على شرح الأزمري.

(٣) انظر الخصائص ١: ١٩٢-١٩٣.

(٤) دلائل الإيجاز ص ٤-٥.

يكون الفعل أصلاً في العمل الإعرابي، لأنه أكثر عدداً للمقتضيات، ولا يكون عاطلاً عن العمل إلا إذا ورد زائداً للتوكيد، أو لمجرد الدلالة على الزمان. وحيث أن يكون حكمه حكم الحرف المقحم في التعبير، وعمله مقصور على الجانب المعنوي. وقد يضيق أفق حاجاته، حين يُلغى عمله اللفظي فيكتفي بالفاعل، أو يورّد للخبر عن مجرد حصوله، نحو: زيد - أظنّ - ناجح، وزيد ناجح أظنّ، وجاء النصر، وما أخطأ أخوك.

وإنما يلي الفعل، في كثرة المقتضيات، ما كان مصدراً أو مشتقاً من الأسماء، مع احتفاظه بمعناه الصرفي الذي يتضمن الدلالة على الحدث. فكل من هذين الاسمين يتضمن حاجات الفعل نفسه، ويجري مجراه في التركيب، بالعمل المزدوج أيضاً. وتكون أسماء الأفعال في مثل هذه المنزلة لأنها ضُمّت معنى الفعل، كما هو ظاهر في تسميتها.

ثم يلي ذلك فيقع في المرتبة الثالثة، من هذا الميدان، ما عُرف بالأدوات العاملة. وهي أكثر حروف المعاني وما يُلحق بها من الأسماء. ذلك لأن الأداة تتضمن معنى حدث أو أكثر، كالأحرف المشبهة بالفعل، والجوازم لفعل أو فعلين، وحروف الجر والنداء، فيكون لكل منها نصيب في العملين المتلازمين: اللفظي والمعنوي.

وليس معنى هذا أن تُحصَر العوامل في الفعل أو ما في معناه. فاسم الذات وارد في عداد العوامل اللفظية أيضاً، حين يقع مقتضياً للإضافة أو التمييز أو التبعية أو الحال أو الخبر... فيكون له في كل منها حاجات تركيبية، من وظائف وعلامات. ذلك لأن الإعراب ليس عملاً مادياً

يرتبط بالحَدَث وحده، وإنما هو تعبير لغوي تركيبى، كما قلنا مراراً،  
والعامل المباشر فيه هو المفردات المقتضية له، بما فيها من لفظ ومعنى  
ومقصد تعبيرى، وما تضبطه قواعد التركيب النحوي.

ومن ثمّ كان لهذه العوامل حق الظهور والخفاء، والتقديم والتأخير  
بمراحل في طبّات الكلام، خلافاً للعوامل المادية الخالصة. وعليه فإن  
فُقد لفظ العامل حذفاً أو إضماراً كان في حكم المذكور، لأن وظيفته  
الإعرابية، أي: دلالة النحوية المزدوجة، حاضرة في التركيب، كالقفل  
أو المبتدأ أو الخبر أو الحرف المحذوف.

وليس للعامل، حين نذكر نظرية الانتضاء، أن يكون معدوماً غير  
مقدّر أي: معنوياً خالصاً، كما تدعي بعض النظريات المختلفة، في تفسير  
التجرد عن العوامل للمبتدأ والفعل المضارع مثلاً. لا بد أن يكون  
العامل، في رأينا، مذكوراً حاضراً بلفظه، أو مقدراً حاضراً بمعناه في  
ذهن المتكلم وإدراك المخاطب، يُشعر به السياق التعبيري أو مقام  
الخطاب. فالمعدوم الذي ليس له معنى حاضر في التركيب لا يوجب  
عملاً<sup>(١)</sup>، إذ ناقض الشيء لا يعطيه.

فإذا حضر اللفظ المحذوف المقتضي كان له اشتراك ظاهر، في العملية  
الإعرابية المزدوجة، ولم يبق للوظيفة النحوية انفراد بها. فاللفظ أصل إن  
وجد، وإن فُقد كان العمل للوظيفة المتشعبة هذه، مع ملاحظة المفقود  
تقديراً بلفظه ومعناه ومقاصده. لسنا نعني بالوظيفة ههنا موقع المعمول

(١) شرح الفصل ١: ٨٤ و ٨: ١٢ والإنصاف ص ٤٥-٤٦ و ٤٨-٤٩.

من سياق الكلام، أي: صفته النحوية في التركيب، فذاك أمر قد دفعناه من قبل، حين ناقشنا النظرية المعنوية. ولذلك وصفنا الوظيفة بـ «المتشعبة»، إشعاراً بتعدد حاجاتها والدلالات اللازمة.

ونضيف الآن أن تلك الصفة التركيبية الصوتية للعمول قد تكون ذات حالتين مختلفتين، يتعذر تحقيقهما معاً، كما في قولنا: لا تجهلن، ولن تنجحن حتى تعملن، وإن حضروا شاركوا، ومن صدق أفلح. ففي مثل هذه الأفعال يتغلب التحقق لصورة البناء بسبب رسوخها، ويكون لصورة الإعراب تقدير ملحوظ. أما معنى العامل فحاضر في التعبير، يدركه كل مخاطب.

بل ربما تنازعت في اللفظ ثلاثة مواقع مختلفة الحاجات التعبيرية، كأن تقول: من سعى نجا. فالفعل ههنا وقع في محل جزم، وصيغته تتطلب بناءه على الفتح، ولفظه يتعذر فيه كلتا الحالتين. ولذلك تراه أصم الطرف، وهو في محل جزم باسم الشرط، ومقدر فيه لفظ البناء الأصلي اللازم.

ومن ذلك ما ورد في القول المأثور: «إِنَّمَا أَدْرِكُنَّ أَحَدَ مِنْكُمُ الدَّجَالَ»<sup>(١)</sup>، إذ كان للفعل الماضي أن يبنى على الفتح أصلاً، وهو هنا في محل جزم بـ «إِنَّ»، ثم اتصل بنون التوكيد التي يبنى الفعل معها على الفتح أيضاً. وفي الأسماء مثل هذا أن تقول: إِنَّ هُدَايَ صَفَايَ، وليت مُنَايَ رِضَايَ.

(١) انظر تصريف الأسماء والأفعال ص ٢٥٩.

ومن خلال هذا التفسير للمصطلحات النحوية، نستطيع أن نجد منافذ حية، لتبيين عمليات الإعراب، وانطلاقها كالتيار الكهربائي، بين حنايا المفردات والجمل وأشباهها، من بؤرة ناشطة مفتوحة، وعناصر فقدت استقلالها، فتفرغت لاجتذاب ما يحقق متطلباتها، وشغلت به وحده، دون ما كانت صالحة له من آلاف الكلمات والتراكيب. فلا مفر بعدئذ من التفاعلات المعنوية والصوتية، تسري بين أوصال الكلام، لتتوضع آثارها في أطراف عناصره، صدى من العناصر الفعالة، وعلامات للوظائف الموزعة بين الأفراد، بحسب مقتضى الحال، وما ترسمه اللغة من مساوات، ليكون التواصل بين المرسل والمتلقي واضح الدلالة، يحدد المقاصد والعلاقات والمراتب والخدمات.

### الرمزية في العلامات

المعروف بين جمهور النحاة أن العلامات الأصلية للإعراب كلٌ منها، في ظاهر التعبير، هو صوت مفرد، يدل على الوظيفة التي يقوم بها المعمول، بحسب الضوابط اللغوية. فكأنَّ الضمة تعني: الإسناد في مبتدأ أو خبر أو فاعل أو نائبه. والفتحة تعني: المفعولية، أي: وظيفة المفاعيل المختلفة، وما يحمل عليها من حال وتمييز وغيرهما. والكسرة تعني: إضافة الأسماء أو الحروف. فهي إذاً رموز كلمات أو تراكيب أو أصوات إشارية مطوّلة، اختُصرت مع القرون، وصارت إلى هذه الحال من الإيجاز والإضمار، مع الاحتفاظ بالدلالة، مما يشي بأنها هي الوظائف الإعرابية نفسها مكثفة.

لكأن العربي استبدل بنحو: لبس الطفل (فاعل) خاتم (مفعول به) حديد (مضاف إليه)، قوله: لبس الطفلُ خاتمَ حديدٍ، بعد أن مر التعبير بمراحل من الاختصار والتعديل خلال القرون والأحقاب الجديدة، حتى صار مثل تلك الكلمات الدالة على الوظائف أصواتاً إشارية مطوّلة، فيها شيء من تلك الحركات المعهودة. وأخيراً تميزت الحركات وحدها بشكلها المضمر جداً، لتوضع في أواخر المفردات، دلالة على المختصرات المتضمنة<sup>(١)</sup>.

يؤنسك في هذا أن ترى الألف والواو والياء المديّات علامات إعرابية في الأسماء الستة، وتلك المدرد مع النون في المثني والجمع، أو النون وحدها والتتوين وحده -رهما أشبه الأصوات بأحرف المد- علامات في الأفعال الخمسة، أو الأسماء المتمكنة. فلعل هذه الأصوات مفردة أو مجتمعة صور، تمثل طوراً أخيراً أقدم من الحركات، في تلك المسيرة المجهولة التاريخ، بقي حاضراً في الواقع اللغوي، يشي بآخر مرحلة كانت قبل الحركات المعروفة المستقرة، ويكون مَنبَهة على ما ندعيه.

وهذا يعني أن تلك الصورة المرحلية هي أصل متقدم على العلامات الحركية، بعكس ما قرره النحاة، من أن الحركات هي أصل في الإعراب، وتلك الصور فرع محمول عليها. إذ الراجح التحقق أن تطور اللغة يكون

(١) انظر فقه اللغات السامية ص ١٠٠ وإحياء النحر ص ٤٣-٤٧ ومقدمة لدرس لغة العرب

ص ٣٥٨ ودلالة الألفاظ ص ٢٠٦-٢٠٧ ومن أسرار اللغة ص ١٧٠ ونتائج العلماء

المسلمين في البحث العلمي ص ٩٩-١٠٠.

في اللفظ والتركيب بالمسير من التعقيد إلى البساطة، أي: من المطول  
المسهب إلى المختصر الموجز، خلافاً لما زعمه كثير من الدارسين اللغويين  
المعاصرين في الشرق والغرب<sup>(١)</sup>.

وهنا يسعفتنا، في قبول الإيجاز والإضمار والرمز بالأصوات دليلاً على  
جهل أو تراكيب، ماروي عن العرب أن أخوين كانا متخاصمين،  
لا يتبادلان الكلام في السنة كلها. حتى إذا جاء وقت الرعي قال أحدهما:  
«آآ، آآ، آآ: ألا تنهض؟ وأجابه الآخر: بلي فا، آآ: بلي فانهض<sup>(٢)</sup>.  
فتكون الألف في كل من «فا وآآ» رمزاً إلى أحرف الفعل المحذوفة كلها.  
وقد ورد هذا نفسه في قول الشاعر<sup>(٣)</sup>:

نَادَوْهُمْ أَنْ الْجُمُوعَا، أَلَا تَا؟

قَالُوا بِجَمِيعَا كُلُّهُمَّ: أَلَا فَا

يعني: نادوهم أن الجموعا، ألا تركبون؟ فقالوا جميعاً: ألا فاركبا. وعلى  
ذلك جاء قول لقيم بن أوس<sup>(٤)</sup>:

بِالْحَيْرِ خَيْرَاتٍ، وَإِنْ شَرًّا فَا

وَلَا أَرِيدُ الشَّرَّ، إِلَّا أَنْ تَا

(١) انظر ص ١٢-٤٢ من الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد.

(٢) الكامل للمبرد ص ٢٣٦.

(٣) شرح شواهد شرح الشافية ص ٢٦٤.

(٤) الكتاب ١: ٢٦ وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٢-٢٦٣. وانظر تفسير القرطبي ١: ١٥٥-

١٥٦ والبحر ١: ٣٥.



يريد: إن شراً فشرٌّ، ولا أريد الشرَّ إلا أن تشاء.

وأظهر من هذا ماتراه في الأدوات، إذ يكون للصوت الواحد دلالة على جملة أو أكثر. فالتنوين مثلاً -وهو نون ساكنة- يرد في آخر المفردات، فيدل على أن في الاسم أمكنية واستقلالاً<sup>(١)</sup>، نحو: كتابٌ وسماءٌ ونهرٌ وجملٌ. وقد يدل على التذكير والتعميم نحو: جاء أحمدٌ وأحمدٌ آخر، وأفٌ لك. وقد يكون للعوض من اسم محذوف نحو: كلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له، أو للعوض من جملة نحو: يومئذٍ وحينئذٍ وعندئذٍ...

وكثيراً ما يتضمن الحرف المعين عدداً من المعاني، في موقع واحد. فالواو تكون عاطفة لمطلق الجمع، والهمزة استفهامية للإنكار التوبيخي، والفاء عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وقد يكون ما هو مؤلف من حرفين أيضاً لأكثر من معنى، كأن ترى من: لابتداء الغاية المكانية، وفي: للظرفية الزمانية، وأل: جنسية للمبالغة والكمال، وإذا: جوابية فجائية للحال، ولو: شرطية امتناعية لامتناع في الماضي. وكذلك ما كان على ثلاثة أحرف أو أكثر، نحو: إذا ولولا ولما وهلا وحتى ولكن.

هذا في المستوى النحوي. فإن رجعنا إلى المستوى الصرفي رأينا صوراً غفيرة، من الرمز الصوتي إلى معان مختلفة. فقد جعل العربي تضعيف الحرف مثلاً، بعد مراحل غفيرة من التعديل والتجويد والإضمار، للدلالة على تكثير الفعل، نحو: قطعَ وصفقَ وكسرَ، أو على المبالغة فيه نحو: شمرَّ ورجىَ ريشً. وزاد في الفعل ألفاً بعد فائه كذلك، فصار

(١) أمالي السهلي ص ٢٥-٢٦ والمغني ص ٣٧٦-٣٧٩.

للمشاركة نحو: صارغ وشاد ورامى، أو للمبالغة نحو: جاوز وراقب وحاذر. وعلى غرار هذا زيادة الحمزة في أول الفعل. فإنها قد تفيد المبالغة نحو: أرق وأحب وأحرق، وقد تفيد الصيرورة نحو: أورق وأثمر وأفلس. ثم يكون للحرفين أو للثلاثة معان إضافية كثيرة جداً<sup>(١)</sup>. كل هذا توجه نحو تكثيف التعبير، وتقليصه وتنقيته من التطويل والتشعب والانتشار.

ولنا تبعد عن الصواب إذا استدللنا، بما ذهب إليه كثير من العلماء، في تفسير الأحرف المتقطعة أوائل بعض السور القرآنية. فقد روي عن ابن عباس أن كل حرف رمز، إلى اسم من أسماء الله - تعالى - لأنه مقتطع منه. فالألف مثلاً من لفظ الجلالة، واللام من اللطيف، والميم من المجيد.

وقيل: إنها مقتطعة من النعم الربانية. يعني: أن الألف من آلاء الله، واللام من لطفه، والميم من ملكه<sup>(٢)</sup> أو من الأسماء الثلاثة المقدسة. فالألف من لفظ الجلالة، واللام من اسم جبريل، والميم من اسم محمد ﷺ. بل لقد روي عن جعفر الصادق أن الألف وحدها تدل على ست صفات ربانية<sup>(٣)</sup>. ولو أنك اطلعت على ما توسع فيه المتصوفة من التفسيرات للحروف، أو ما اصطنعته مزاعم السحرة ودجاجلة المشعبدین، لتملكك العجب العجيب.

ومثل هذه الأقوال، وإن كان ظناً ليس من العلم اليقيني، هو مبني

(١) تصريف الأسماء والأفعال ص ١١-١٢٢.

(٢) الفتوحات الإلهية ١: ١٠.

(٣) تفسير الألوسي ١: ١٧١-١٧٢.

على ما عُرف لدى العرب، من الرمز بالحروف إلى كلمات تتضمنها، كما ذكرنا من قبل، وكما جاء في الأفعال من اختصار حكاية المركب. وذلك مثل: حَوَلْتُ، أي: قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهَلَّلَ أي: قال: لا إله إلا الله. وَبَسَمَلَ أي: كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. وسلَّمَ أي: قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقد صاغوا من القول مع الجمل المحكية به مصادر، ثم اشتقوا منها أفعالاً تصرفوا فيها، وأسماءً للفاعل والمفعول وغيرهما.

ثم إذا راجعنا مسيرة الرمز، إلى حركات الإعراب بالشكل، كان لدينا دليل واضح على ما نحن في سبيل تحقيقه. فأقدم ما عرفه التاريخ، من تلك المسيرة على ما ذكرنا في الإعراب الصوتي من الفصل الأول، هو ما وضعه أبو الأسود الدؤلي، حين عبّر عن الحركات الثلاث بنقطة يخالف لونها لون الحروف المكتوبة. فقد اختصر الأصوات الثلاثة مع التنوين أيضاً، في هذه الصورة الكتابية الوحيدة اللطيفة. وهي أدق ما عرفه الإنسان في عالم الرسم، حتى قيل: إنها صورة ذهنية ليس لها وجود حقيقي، فلا مساحة لها ولا طول ولا عرض، لأنها مكان تقاطع خطين.

وعندما تصدى الخليل بن أحمد إلى هذه المسألة، بعد أن وُضعت نقاط الإعجام للحروف الهجائية، رأى في تنقيط الإعراب ما يسبب اختلاطاً وتعقيداً، فاستبدل بها اختصاراً آخر، أي الرموز التالية: جُزَيْثاً من الألف يدل على الفتحة، وآخر من الواو يمثل الضمة، وثالثاً من الياء يصوّر الكسرة، مع تكرار ذلك في التنوين. ثم أضاف لهمزة القطع صورة

رأس العين من آخر كلمة قطع «ء»، وللحرف المضعف ثلاث سُنيّات «س»، أخذها من أول كلمة: شديد<sup>(١)</sup>. ثم أضيف حرف «ص» رمزاً إلى همزة الوصل، وصوّر مختلفة للدلالة على السكون، ورسم «حف» إشارة إلى التخفيف المقابل للتشديد. وفي هذا كله ما يشير بحق إلى مسيرة الإضمار والإيجاز، وإمكانية التعبير بالجزئيات الدقيقة عن الكليات الكبرى، وقد يكون بين هذه وتلك تجانس صوتي أو لا يكون.

وقد كان لعلماء الحديث الشريف مساهمة فعّالة، في توظيف الرموز للدلالة على العبارات المختصرة. ومما عُرف عنهم واشتهر في كتبهم أنه إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر، وتحولوا من إسناد إلى آخر، عبروا عن ذلك بالحرف «ح». وللتعبير عن السماع الحقيقي من الراوي، يجعلون «ثنا» بدلاً من: حدثنا، و«نا» بدلاً من: أنبأنا<sup>(٢)</sup>. ومع مرور السنين والقرون اتسعت هذه الدائرة لديهم، فكان فيها عشرات الرموز، للدلالة على المختصرات الغفيرة.

هذا جلال الدين السيوطي (ت ٩١١) يصف كتاباً عظيماً في الحديث الشريف، يسميه «جمع الجوامع»، ثم يقتضبه في كتاب لطيف اسمه «الجامع الصغير من حديث البشير النذير»، يقتصر فيه على حوالي<sup>(٣)</sup> عشرة آلاف حديث، ويصطلح فيه على رموز كثيرة، اختصاراً لأسماء الكتب أو

(١) المحكم في نطق المصاحف ص ٦-٨.

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٨٠-١٨٢ والكفاية في علم الرواية ص ٣٧٤-٣٨٤ وإرشاد طلاب الحقائق ص ١٥٠-١٥١.

(٣) حوالي: جمع حوّل، مثل: بلّوى وبلّوى وفتّوى وفتّوى.

المؤلفين الذين ينقل عنهم. وقد كان في هذه الرموز حروف بعض  
الأعلام، يقابلها مايلي من الأسماء المقصودة<sup>(١)</sup>:

خ: الجامع الصحيح للبخاري م: الجامع الصحيح لمسلم

ق: الجامعان الصحيحان للبخاري ومسلم د: سنن أبي داود

ت: سنن الترمذي ن: سنن النسائي

ه: سنن ابن ماجه حم: مسند أحمد بن حنبل

عم: زوائد عبد الله بن أحمد بن حنبل

ك: المستدرك للحاكم النيسابوري خد: الأدب للبخاري

تخ: التاريخ للبخاري حب: الصحيح لابن حبان

طب: المعجم الكبير للطبراني طس: المعجم الأوسط للطبراني

طص: المعجم الصغير للطبراني ص: سنن سعيد بن منصور

ش: مسند ابن أبي شيبة عب: الجامع لعبد الرزاق

ع: مسند أبي يعلى قط: سنن الدارقطني

فر: مسند الفردوس للديلمى حل: الحلية لأبي نُعيم

هب: شعب الإيمان للبيهقي عد: الكامل لابن عدي

(١) الجامع الصغير ١: ١ وصحيح الجامع الصغير وزيادته ص ٢١-٢٥ وكشف الظنون

عق: الضعفاء للعقيلي خط: التاريخ للخطيب

واستخدم الرقم ٤ اختصاراً لأسماء كتب أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، والرقم ٣ للدلالة على كتب أبي داود والترمذي والنسائي. ثم اختصر التعبير عن مرتبة الأحاديث بأحرف، فكان للحديث الصحيح «ص»، وللحديث الحسن «ح»، وللحديث الضعيف «ض». أما في كتابه «جمع الجوامع» فقد كانت الرموز أكثر مما ذكرت هنا<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان شأن علماء تاريخ الرجال، إذ استخدموا الرموز الحرفية، اختصاراً لأسماء الكتب التي ينقلون عنها. فقد صنف شمس الدين محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣) كتاباً، سماه «نهاية الدرايات في أسماء رجال القراءات»، فكان ضخماً جداً. ولذلك اختصره في كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء»، ورمز بالحروف التالية إلى الكتب المعتمدة:

ن: النشر في القراءات العشر لابن الجزري نفسه

ت: التيسير في القراءات السبع لعثمان بن سعيد الداني

ج: جامع البيان لعثمان بن سعيد الداني

ك: الكامل في القراءات الخمسين ليوسف بن علي الهنلي

سب: المبهم في القراءات الثمان... لسبط الخياط

س: المستثير في القراءات العشر للمقري البغدادي

(١) انظر منتخب كثر العمال في حاشية مستند الإمام حنبل ١: ٧-٩.

ف: الكفاية الكبرى في القراءات لعشر للقلاني

غا: غاية الاختصار في القراءات العشر للعطار الحمداني.

وإذا كانت الإحالة على هذه الكتب كلها عبر عن ذلك بالحرف: ع<sup>(١)</sup>.

وكان الحافظ عبد الغني المقدسي (ت ٦٠٠) قد صنف كتاب «الكمال في معرفة الرجال»، جمع فيه تراجم كثير من أصحاب الحديث الشريف<sup>(٢)</sup>، فتلقاه الحافظ جمال الدين يوسف المزي (ت ٧٤٠) بالعناية والاهتمام، وصنف عليه كتاب موسعاً اسمه «تهذيب الكمال»، لكنه لم يستطع إنجازَه، فأتمه علاء الدين مُغلطاي بن قليج (ت ٧٦٢). ولأن هذا التهذيب كان مطولاً، فقد تناوله الحافظ شهاب الدين ابن حَجَر العقلائي (ت ٨٥٢) بالاختصار في كتاب سماه «تهذيب تهذيب الكمال»، واخصره أيضاً في مصنف آخر اسمه «تقريب التهذيب». وقد جعل لهذا المصنف الأخير رموزاً حرفية ورقمية، للدلالة على أسماء المصادر المعتمدة، فكان منها<sup>(٣)</sup>:

خ: الجامع الصحيح للبخاري م: الجامع الصحيح لمسلم

د: سنن أبي داود ت: سنن الترمذي

س: سنن النسائي ق: سنن ابن ماجه القزويني

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ١: ٣.

(٢) كشف الظنون ص ١٥٠٩-١٥١١ وموسوعة المصادر والمراجع ص ١٩٥-١٩٧.

(٣) للبخاري رأي دارد والنسائي رموز أخرى، إلى كتبهم المختلفة، منها: تحت، بخ، عخ، مد، صد، فد، كد، ص... انظر تقريب التهذيب ١: ١٦.

ع: مجموع الكتب الستة ٤: الكتب الستة ماعدا كتابي الشيخين.

ولأن كثيراً من المؤلفين، في العلوم العربية والإسلامية، استقى بعضهم عن بعض أقوالاً وأحكامها وتوجيهات وتفسيرات، فقد انتقلت إلى مصنفاتهم ظاهرة الرمزية أيضاً، وأصبحت شائعة متداولة مألوفة، يختار كل منهم ما يناسب مصادره المعتمدة. وهذا الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢) ينثر في شرحه للكتب اللغوية عدداً وافراً من الرموز، بعضه معروف أصله، وآخر فيه ما هو مجهول الدلالة أو معلومها<sup>(١)</sup>.

فمن الأول أن ترى نحو ث: لأحمد بن يحيى ثعلب، وح: لعلي بن إبراهيم الحوفي، ورز: للرزاز، وع: لأبي العلاء المعري، و ش: للأخفش الأصغر و ك: لابن كيسان، وق: للقصابي، وفتح: لأبي الفتح ابن جني.

ومن الثاني ما هو مكون من حرف مفرد نحو: ذ، ر، ز، ض، أو من حرفين للدلالة على اثنين مثل: ذر، زح، زع، ضق، قس، قك، أو من ثلاثة أحرف للدلالة على ثلاثة نظير: ذع ح، زع ح، أو من أربعة للدلالة على أربعة أيضاً: ح ر ز ع.

وربما كان فيما يؤلفه العالم مفردات يكثر تكرارها جداً، وتشكل مادة وافرة في النص. واختصاراً للتعبير، ولا سيما إذا كان الكتاب من المختصرات، يقتطع المؤلف أحرفاً من تلك المفردات المترددة بكثرة، يجعل كلاً منها رمزاً إلى ما اقتطعت منه. ومن هذا ما تراه وارداً في القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت ٨٧١)، حيث تجد أن كلمة «قرية» يرمز إليها

(١) انظر منهج التبريزي في شروحه ص ٢٢١-٢٢٢ وتعليق إصلاح المتن ص ١٠١١.



بالحرف «ة»، ولفظ «بلد» يقابله «د»، والتعبير عن «موضع» يحل محله «ع»، وبدلاً من وصف الشيء المفسر بأنه «معروف» يرد الحرف «ع». فإذا كان اللفظ جمعاً فالرمز إليه «ج»، وإذا كان جمعاً لجمع فالرمز «جج»، فإن كان جمع يجمع لجمع فالرمز «ججج»<sup>(١)</sup>.

والمعروف عن النسخ للكتب العلمية والأدبية، بعد أن صارت لأعمالهم خبرات منتظمة واضحة المعالم، أنهم اتخذوا لأنفسهم رموزاً كثيرة للدلالة على ما يتردد لديهم. من ذلك مثلاً أن ما ليضبط أحد أحرفه ثلاثة أوجه يكون فوقه «ث»، وما يراد تصويبه توضع عليه «ص» إشارة إلى ما يكون في الحاشية من الصواب. ثم ما يعلق في الهامش من عبارات للتوضيح، يقال له حاشية أو طرة، واختصاراً لهذا يرفق ذلك التعليق بـ «ح» أو «ط».

وإذا بدا في الكلمة شك، ولم يعرف وجه الصواب، كان فرقها «ص» إشارة إلى التمريض. وإن كان في العبارة تقديم وتأخير لبعض الكلمات رسم الحرف «ق» على ما هو مقدم، والحرف «خ» على ما هو مؤخر. وما ينقل في الحاشية عن نسخة يسجل بجانبه «خ» أيضاً، وما انتهى نقله من أقوال العلماء يكون في آخره «اه»<sup>(٢)</sup>.

(١) القاموس المحيط ص ٢٣ و ٢٥ .

(٢) لمعرفة تفصيلات أكثر، عن الاختصارات في التأليف العربي، ينظر كتاب: العلامات والرموز عند المؤلفين العرب، لحسين علي محفظ، مطبعة بغداد لعام ١٩٦٤ . وقد شاعت هذه الرمزية حديثاً في البلاد الأوربية، حتى جمع منها جون باكستن كتاباً في مئات الصفحات، تحت عنوان: معجم المختصرات.

وهناك أسلوب آخر للاختصارات الرمزية، عرفه العربي من قديم الجاهلية، وهو ما يسمى بحساب الجُمَّل، أي: حساب حروف الهجاء. فقد اصطَلَحُوا على الرمز بحروف الأبجدية العربية إلى أسماء الأرقام، كما يلي<sup>(١)</sup>:

أ: واحد ب: اثنان ج: ثلاثة د: أربعة هـ: خمسة

و: ستة ز: سبعة ح: ثمانية ط: تسعة ي: عشرة

ك: عشرون ل: ثلاثون م: أربعون ن: خمسون س: ستون

ع: سبعون ف: ثمانون ص: تسعون ق: مائة ر: مائتان

ش: ثلاثمائة ت: أربعمائة ث: خمسمائة خ: ستمائة

ذ: سبعمائة ض: ثمانمائة ظ: تسعمائة غ: ألف.

ثم استعملوا الأرقام: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، وما يركب منها في العشرات والمئات والألف، فكان في ذلك اختصار رمزي آخر، ما يزال مستعملاً حتى الآن.

فلعلك رأيت، فيما سردنا من الاقتصاد والاختصار اللغويين، صوراً كافية لتحقيق ما زعمناه في رمز حركات الإعراب إلى الوظائف النحوية. وما سردناه كله وارد في التاريخ العربي المدوّن، على مدى بضعة عشر قرناً. فلا غرو أن ما كان للعربية، قبل التاريخ في عشرات القرون

(١) مجلة المشرق ٦: ٩٨٦-٩٨٧ ومطالعات في الشعر الملوكي والعماني ص ١٧٣-١٧٤.

والعشرات، هو عمليات أكبر مما عرضنا وأكثر اختصاراً واقتصاداً مع الزمن، إذ الممارسة الكثيرة لاستخدام الأشياء كقيلة بالتخفيف والتلطيف والصقل والتهذيب.

فلقد عاشت لغتنا الحبيب، في تلك العشرات المتعددة من القرون، مع تذوق الألسن والآذان والحس الجمالي، يتحكم فيها بالتيشير والتجويد والتنغيم، الأمر الذي تنوالى فيه عمليات الاقتصاد الصوتي باطراد وسرعة وعمق، لتوضع الرموز الرشيقة في مكان الألفاظ المطوّلة. وهذا خلاف لما يحصل للغات، حين يحفظها كتاب أو مسجّلة أو كَبْتار<sup>(١)</sup>، إذ تثبت صورها اللفظية، ويقل أو يتعذر فيها التحوير.

ثم لماذا نبعد في التمثيل، وننسى ما هو حديث، في العربية وغيرها من اللغات، أعني علامات الترقيم؟ فهذه الرموز أصغر من الحروف أحياناً، وترد في الكتابة للدلالة على جل مقدرة. بيد أن كثيراً من الكتاب المعاصرين يظنها حلية للرسم، فيلقونها بين أجزاء العبارة، على غير رعي أو تقدير، متداخلة أو مكررة أو متبادلة للمواقع. وهذا ما تراه يجلاء في النصوص العربية عامة، من الكتب والصحف والدوريات، وبخاصة ما يسمى بالنثر المشعّر.

هذا مع أن العرب وغيرهم كانوا منذ القدم، وما زلوا إلى أيامنا الحاضرة، يستخدمون في التعبير اليومي وسائل مخصوصة، للدلالة على ما تفيد علامات الترقيم. وإنك لتسمعهم يتكثرون على ضروب، من التباطؤ

(١) الكَبْتار تعريب، عل قياس: الغريال والجلباب والقرطاس، للجهاز الذي يقال له:

كمبيوتر، وحاسوب ومحاسب وحسّوب... وانظر الاقتصاد اللغوي ص ٩-٦١.

والتوقف والتلبث والمد والتفخيم والنبر والتنغيم، للإشعار بما يريدونه، من قطع واستئناف وتفصيل واعتراض وتعجب واستفهام وأمر ونهي ونفي وزجر... وربما أشار بعضهم إلى الاعتراض بقوله: بين قوسين.

وقد لاحظ علماء القراءات ضرورة هذه العناصر الدلالية، فوضعوا المصطلحات المساعدة على الأداء، ثم دوتوا كثيراً منها في متون المصاحف، برموز مخصوصة ضابطة ميسرة، ترى بعضها مع ما يقابله فيما يلي:

الوقف الممنوع = لا    الوقف اللازم = م    الوقف الجائز = ج

الوقف الجائز والوصل أولى منه = صلى

الوقف الجائز وهو أولى من الوصل = قلى

تعانق الوقفين بحيث يوقف على أحدهما فقط = . . :

أضف إلى هذا ما يشيرون به إلى نهاية الآية، بدائرة مرقومة، تفيد الوقف غالباً.

وللعلماء أبحاث كثيرة جداً، في هذا الموضوع، ألفوا له مصنفات متعددة، ذكروا فيها أحكام الوقف وأنواعه ودرجاته والمذاهب المختلفة في ذلك. وأكثر القراء يتحررون المعنى في الوقف، وإن لم يكن في رأس الآية، لبيان المقاصد وتوضيح المراد<sup>(١)</sup>. فهم يطلبون بالوقف تبين معاني الكلام

(١) جمال القراء وكمال الإنشاء من ٦٦٧-٧٣٠ والبرهان في علوم القرآن ١: ٣٤٢-٣٧٥ والإنشاد في علوم القرآن ١: ١٨٠-١٩٤. وانظر لإيضاح الوقف والابتداء للأنباري، والقطع والاستئناف لأبي جعفر النحاس، والمكشي في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني، والتعبد في علم التجويد لأبي الجوزي.

وتكميلها، فيجعلونه منبهاً على المرامي الدقيقة ، ومنفصلاً بعضها من بعض . وقد ذكروا للوقف أقساماً لها فروع متعددة متشعبة . وأشهر الأقسام أربعة، هي :

الثام، وهو الذي لا يتعلق بشيء مما بعده لفظاً ومعنى . فيكون الوقف عليه والابتداء بما بعده، وأكثر ما يوجد في رؤوس الآي . والكاف، ي وهو ما كان منقطعاً في اللفظ متعلقاً في المعنى بوجه ما، كالمعطوف عليه والمعلل وما بعده «بل» أو «ألا» أو استفهام . فيكون الوقف عليه والابتداء بما بعده أيضاً . والحسن، وهو ما لا يحتاج إلى ما بعده، لأنه مفهرم من دونه، ويحتاج ما بعده إليه لجريانه عليه في اللفظ . فيوقف عليه لتمام معنى به، ولا يجوز الابتداء بما قبله وحده أولاً . والقيح، وهو الذي لا يفهم منه المراد، أو يفهم منه خلاف المقصود، كالمبتدأ دون خبره، والشرط بدون جزائه، والجار من دون المجرور، والمضاف بلا المضاف إليه . فلا يجوز الوقف على مثل هذا .

وكان الصحابة الكرام يُوثون هذا الجانب القرآني عناية ظاهرة، ويوجه بعضهم بعضاً إلى التزامه . فعن عبد الله بن عمر أنه قال : «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا ليؤتي الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فتتعلم خلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم القرآن اليوم . ولقد رأينا اليوم رجالاً، يؤق أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره وما زجره، وما ينبغي أن يوقف عنده منه»<sup>(١)</sup> .

(١) الإنقان ١ : ١٨٠ والبرهان ١ : ٢٤٢ .

وهذا يعني وجوب متابعة الاهتمام والتنفيذ لأحكام الوقوف المختلفة، كما ذكرناها من قبل، مع مراعاة الثبر والتنظيم لبيان مقاصد الأمر والنهي، والنداء والاستفهام والتعجب، والتهويل والتعظيم والتفخيم والزجر والتهكم، والإيناس والتلطف والوعظ<sup>(١)</sup>... كل هذا تلازمه أيضاً مراعاة الاختلاف في تفسير الآيات، إذ كل توجيه للمعنى يقتضي ضرباً من الوقف يناسبه.

وقد استأنس بعض العلماء في وجوب التزام أحكام الوقف والأداء، بما ذكره عبد الله بن عمر، وما روي عن النبي ﷺ، من أنه سمع خطيباً يقول: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما» ووقف دون أن يتم كلامه: «فقد غوى»، فقال له، عليه السلام: «بِسَّ الخُطِيبُ انت!»<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر العلماء أن السُّنة في القراءة تكون بالتدبر والتفهم، وشغل القلب بالتفكر في معنى ما يلفظ به، لأن ذلك هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم<sup>(٣)</sup>. ومن ثم استنكروا ما ابتدعه بعض الناس، من أصوات الغناء، كالترعيد والترقيص والتطريب والتحزين والتحريف<sup>(٤)</sup>. بل لقد قيل: إن الإفراط في مثل هذا حرام، يفسق به القارئ ويأثم

(١) البرهان ١: ٤٥٠ والإتقان ١: ١٣٠ .

(٢) البرهان ١: ٢٤٣ .

(٣) البرهان ١: ٤٥٠-٤٥٢ والإتقان ١: ١٣٠ .

(٤) جمال القراء ص ٦٤١-٦٤٢ .

المستمع<sup>(١)</sup>. وهذا ماشاع في أيامنا هذه، وصار عادة متبعة لدى جمهور القراء، حتى كادت تصبح التلاوة خاصة بالحفلات والمآتم.

أما علامات الترقيم فالمتعارف بين العلماء، في أصول استخدامها، أن يكون وسط الصفحة لمتن البحث والمعلومات الأساسية، وذيئها حاشية للتعليقات الموضحة بإيجاز وحرف دقيق، وبينهما خط قصير فاصل لئلا يكون اختلاط.

ثم إنَّ النقطة بين الكلام تعني عدة جمل: قف قليلاً، وانتهت العبارة، وسترده عبارة مستأنفة. وقد تكون النقطة لانتهاى فقرة أو فصل أو باب أو موضوع بكامله. وهي تمثل الوقف التام عند القراء. والعجيب أن هذه الصورة الدقيقة جداً - بل الوهمية لأنها مكان التقاء خطين متقاطعين، أو ما ليس له طول ولا عرض ولا مساحة إلا في الذهن - تستطيع أداء تلك المقاصد الدلالية المختلفة.

وأعجب منها في الدلالة هذا الفراغ الذي خلفناه هنا أول السطر، ونخلفه في أول كل فقرة. فهو يعني، مع كونه فراغاً سلبياً أصمّ أعجم، أن الفكرة التي كانت قبله قد تمت، ونحن نبدأ فكرة تابعة أو متميزة، وأن الفقرة السابقة قد انتهت، وما يليها هو فقرة أخرى تابعة أو متميزة أيضاً. وقد استطاعت هذه الصورة الرمزية الخفية أن تقدم للقارئ عدة معان، تستغرق للتعبير عنها سطرًا أو أكثر.

(١) الإثنان ١: ٢٣٢-٢٣٣.

والرمز بالفاصلة في الكتابة يعني وقوفاً لطيفاً، لملاحظة ما هو متصل بتبعية أو تفصيل أو تفسير. وهذه الإشارة الرمزية تقابل الوقفين الكافي والحسن عند القراء، بالتفصيلات المذكورة لديهم.

والنقطتان إحداهما فوق الأخرى تردان، للدلالة على أنه سليلهما محكي بعد قول وما يشبهه، أو مفصل بعد مجمل، أو مفسر بعد مبهم.

وخطا الاعتراض يكون أولهما إشعاراً بوقفة لطيفة أيضاً، لما سيكون من جملة مقحمة تقطع التعبير، فنفيد التوكيد أو التسديد أو التحسين، أو التخصيص أو التعليق، أو التشخيص والتعظيم، أو الاستغراق في الوصف والبيان. ثم يأتي الخط الثاني، لوقفة ثانية مماثلة تفيد العودة إلى وصل ما انقطع. وإذا وقع هذان متوازيين في آخر الصفحة دلاً على وصل ما بين الصفحتين بالتعليق.

أما إشارة الاستفهام فتحقق أن ما قبلها كان يراد به الاستعلام المحض، أو الاستعلام مشوباً بنفي أو توبيخ أو تقرير أو تحقيق أو تهكم أو أمر أو تعجيب... وأما إشارة التعجب فتنبئ عن استعظام ما قبلها، لما فيه من مضامين يجهل أو يتجاهل الكاتب أسبابها، وقد يجار في فهم حدوثها وتفسير العلاقات بينها. ومثل هذه المقاصد يكون في التلاوة تعبير عنه بالنبرة والتنغيم والشدة والتفخيم...

هذا بعض ما يُعرف عن علامات الترقيم. بلّة ما يكون من عناوين رئيسية للبحث والأبواب، وفرعية للفصول تساوق توزع الباب الواحد،



وجانبية توضح تسلسل كل فصل، وفقر تعرض مسيرة المعلومات وترتّب بعضها على بعض. ثم ما تبقى من إشارة الفاصلة المنقوطة، وأقواس المحكي والمُحمّ، والمقتبس من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال المحكيّة، والنقاط المتوالية دالة على حذف من الاقتباس، والشكل المعتاد في توزيع الشعر العربي. ثم تجد ما يطالعنا به المعاصرون، من رموز مبعثرة، يتعذر عليك إدراك مقاصدها الوهمية.

فقد عرض عليّ أحد الطلاب أسطراً، منذ عدة سنوات، تحت شعار «قصيدة مثورة»، يريدني أن أبدي له رأي المتواضع فيها، وقدم لها بقوله معذراً: إنها الآن غير منقّطة، وسوف أضع فيها النقاط اللازمة بعد. فكان اعتذاره أعجب من عمله. ولذلك طلبت منه إجراء التنقيط فيها قبل أن أقرأها، لأفهم ما يريد من التوجهات المقصودة. وبعد أيام عاد بها منقوطة بتوزيعات ليس لها نظام، فقرأتها مراراً دون أن تتضح لي ملامح الرؤى التي انساق إليها في التعبير. وعندما تسلمها مني رأي تعليقي عليها بالعبارة التالية: «غموض واضح».

أدهشه ما قرأ فقال: مامعنى هذا، يا أستاذ؟ قلت: هذا من هذا! وأشارت إلى الأسطر الصمّ البكم العمي، لاثّين ولا تُفصح ولا تنطق بمراد حتى ينطق الحجر. ثم سأله عن سبب اختلاف النقاط، مشى وثلاث ورباع وخماس وسداس. فقال: إنها توترات لاشعورية، تتفاعل في موجات الخاض الإبداعي، وتجد أعماق أعماق الباطن الدفين، ولا يمكن تفسيرها بمجرد التعبير والتصوير....

وأنت ترى أن تلك الوسائل المتعارفة، المتفق عليها في أساليب الكتابة المثترنة، شبيهة بإشارات المرور المقررة. فمتن الشارع المعبد للسيارات والمجالات والدراجات والحمير، يمثل متن الصفحات. وعلى جانبيه مرتفعان مرصوفان للمشاة، يناظران حواشي التعليقات. والخطوط المتوازية بينهما لهؤلاء أيضاً، كالصلة بين حواشي الصفحات لحركة التفكير والتعبير. ومتنصف الشارع يمثل نهاية السطر في وسط الفقرة، والوقف القبيح عند القراء. فهو يعني وجوب متابعة الانطلاق، خشية الانقطاع وفقد المصير.

ثم تجد إشارات المرور: الضوء الأحمر للوقوف المتلبث يناظر النقطة، والأصفر بعده للتنبيه إلى استئناف الانطلاق بهدوء، كال فراغ الدقيق بعد النقطة مهيئاً لمباشرة النطق بعد الانقطاع. وكذلك يكون الأصفر قبل الأحمر للاستعداد للوقوف بلا مفاجأة وعنف، كال فراغ قبل النقطة. والأخضر للاستئناف بعد ذلك التوقف إزاء النقطة. وفقد الإشارات، أو دوامذبذبة الأحمر، يكون لمتابعة السير جوازاً كالوصل الاضطراري. وعوامل الحفر والإصلاح، أو إشارة شرطي السير، تكون شبيهة بالوقف الاضطراري.

وللمخرج من شارع فرعي إلى رئيسي إشارة كالاغراض، تعني التوقف اليسير، لما يعرض من مرور الغير، منتهياً بالعودة إلى متابعة المسير. وكذلك ما يصادف، من دائرة مقابلة للسائق، كأنك أمام خطين للاغراض. وفتحة الانعطاف في شارع ذي اتجاهين شبيهة بالفراغ الواصل بين الشطرين للبيت الشعري.

أما الرصيف المعترض في آخر الشارع فيفيد الوقف النهائي، كما يشير آخر الفقرة أو الفصل أو الباب في البحث. وأما الخط المتعرج بين علامات المرور فللدلالة على منعطفات متوالية، أي: احتجاجات جدلية تتطلب القبول والرد. وأما علامة التعجب فتشير إلى اضطراب، فيما سيلي من الطريق، يشير استغراب الإنسان وتنبه الزائد.

أضف إلى هذا ما يكون من لافتات كبيرة تحدد اسم المدينة، وأخر صغيرة للأحياء والشوارع المتطاولة، وثالثة أصغر لتوزع الحي أو الشارع في فروعه المتواصلة، شأن ما تجده من عناوين رئيسية أو جانبية أو فرعية في الموضوع. وقد تجد إشارات لمواقف خاصة، بأناس أو مؤسسات أو دوائر متكاثرة أيضاً. وهو ما يصادفك في الكتابة من تلبث، لبعض الملحوظات الذاتية المتميزة، لا يقرها إلا القليل من ذري الرأي.

وأنت معي، في أن هذه الرموز المقررة للسير يجب التقيد بما تتضمنه من الترجيح، للحفاظ على مصالح العباد والبلاد. فتصور أمة تجاهلت ذلك، أو اختلف أفرادها في إدراك مقاصده، وفي الاستجابة لما يفهمون من التوجيهات، كم يكون لأموالهم وشؤون حياتهم، من اضطراب ودماراً ومن ثمّ تستطيع أن تتصور أيضاً ما نعانيه، في التفكير والتعبير والتلقي، من اختلال وفساد، للاختلاف والتناقض فيما نعامل به علامات الترقيم هذه، في الكتابة والتلاوة والقراءة والإنشاد.

وحسبك أن تقارن بعض النصوص أو الصفحات ببعض، من مختلف الكتب والمجلات والصحف والرسائل، لترى الفوضى في توظيف هذه

الوسائل التقنية في الكتابة. ولو كلفت بعض الطلاب، في أربع مراتب الدراسة العليا، أن يوزعوا تلك الوسائل على صفحة معينة، لرأيت أعجب العجب في لغة العرب. وما أمر القراءات والتلاوات والإنشادات بأيسر من ذلك.

حسبنا ما أوردنا، من نماذج الرمز والاختصار، في القرآن الكريم والنثر والشعر، وفي العربية وغيرها من اللغات ومنافذ الحياة. ففيه دليل يؤنس بما طرحناه، من تفسير لعلامات الإعراب. وإذا كانت تلك النماذج الرمزية التعبيرية مغتفرة، مع أنها قد ترد نادرة في الممارسة والأداء، أو متباعدة وبقلّة، وتغيب في بعض المواقف أو الكلام، فمن باب الأولى أن تكون علامات الإعراب وهي تلازم أكثر المفردات في التكلم والقراءة والكتابة والتلقي رموزاً مختصرة من كلمات أو أصوات إشارية، وضعت قديماً للدلالة على وظائف الإعراب في التركيب.

وإذا كان للنقطة الواحدة ما رأينا، من القيمة التعبيرية في علامات الترقيم، فليس غريباً في الحركة الإعرابية - وهي نقطة أيضاً كما مثلها أبو الأسود، أو حرف مد دقيق كما اقترح الخليل يتألف مما لا يحصى من النقاط - ليس غريباً فيها أن تكون ذات دلالة على الوظيفة المُقتضاة، وصلت إلينا بعد قرون وقرون، تحمل آثار ما كان يستخدمه قدماء العرب، للتعبير عن معانٍ إعرابية في التركيب.

ثم إذا استرجعت الرموز التي عُبرَ بها، عن التشديد والتخفيف وهمزتي القطع والوصل والنسخة والطّرة والحاشية - وهي أحرف مقطوعة من تلك الألفاظ الاصطلاحية - رأيت نفسك أمام صورة عملية تشبه ما زعمناه في

تطور صوتيات الإعراب. فنحن جميعاً نعرف دلالة هاتيك الرموز، لأنها واضحة التفسير في كتب العلماء. ولو قُدِّر للعربي القديم أن يدون تجربته، في الإعراب التركيبي، لوضعنا أيدينا على شيء قريب جداً مما زعمناه.



وهكذا نكون قد بسطنا قصور النظريات المطروحة، لحل ظاهرة العمل الإعرابي، وأجملنا ما تشترك فيه أو تفرق من نقاط، ثم عرضنا المصطلحات النظرية التي تُماس تلك الظاهرة، لنبين نقاط الالتقاء والافتراق، فكان ما زعمناه من بُعد عن المطابقة في جميع ذلك. وقد تبدى لنا البعد المذكور، من خلال طبيعة الطرفين: التصويت الإعرابي والمفاهيم المنطقية. فالمصطلحات المذكورة تُنصب في ميدان التنظير والتطبيق، على حين أن العمل الإعرابي سلوك لغوي، يحتاج إلى تفسير يُستمد من اللغة أيضاً.

وقد دفعنا هذا إلى التوجه اللغوي، حيث تبيّنا أن العمل الإعرابي هو مقتضى للوظائف والعلامات، وذو صفة ازدواجية، تشمل لفظ العامل ودلالته معاً، من خلال مقتضى الحال وضوابط اللغة، بعيداً عن حياض المادية في تبادل الإنتاج والتأثر. ومن ثَمَّ تابعنا مراقبة ذلك الازدواج، لرصد أبعاده في تنوع المقتضيات وسعة الأحياز، ونستخلص شخصيته المتميزة بالمباشرة والأصالة التعبيرية.

ثم راقبنا توزع العوامل، في مستويات الاقتضاء، فرأينا الحاجات

المتفاوتة للمفردات داخل التركيب، وأنها تتوضع في مراتب: أولها للفعل بما يتضمنه من أبعاد وظيفية متعددة، وثانيها للمصادر والمشتقات وأسماء الأفعال والأدوات العاملة، بما تحمله من الدلالة الحَدَّثِيَّة، والثالثة لأسماء الذوات بما تفتقر إليه من استقلال وكمال. ورابعها للوظائف النحوية التي غاب اللفظ المعبر عنها.

وأخيراً وقفنا إزاء بعض المصطلحات النحوية، نتلمس دلالاتها العلمية المقررة، لنصل بينها وبين ما زعمناه من نظرية الانتضاء، وأطلقنا التلبث أمام علامات الإعراب، لنفسر مضامينها الدلالية، فكان نتاج ذلك أنها خلاصة صوتية لوظائف المعمولات في التركيب. واستطعنا أن نتيين، من خلال هذا، القنوات الواصلة بين وقائع التعبير وظواهر الإعراب، ومقتضى الحال ومقاصد المتكلم والضوابط اللغوية.

## صدر عن دار الفكر للمؤلف

- الجمل في النحر
- سلامة بن جندل
- شرح اختيارات المفضل (١-٢)
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى
- شرح المعلقات العشر
- شعر الأخطل
- شعر زهير بن أبي سلمى
- ابن عصفور والتصريف
- (كتاب) الاختيارين
- منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات
- المررد النحوي
- نصوص نحوية
- الرواي في العروض والقوافي

## وسلسلة بحوث ودراسات في علوم اللغة والأدب صدر منها

١. أبواب ومسايل من الخصائص
٢. تحليل النص
٣. تطور مشكلة الفصاحة والتحليل
٤. المهارات اللغوية وعروبة اللسان

# THE PROBLEM OF THE GRAMMATICAL FACTOR

&  
The Theory of Requisite

Mushkilat al-'Amil al-Nahwi  
wa-Nazariyat al-Iqtidā'

Dr. Fakhr al-Din Qabāwan

فكر

www.furat.com  
مركز من جامعة القاهرة للدراسات والبحوث

حازت على جائزة أفضل نشر عربي لعام ٢٠٠٢  
من الهيئة العامة المصرية للكتاب

هذه السلسلة الرشيدة حصيلة عدة عقود، من المطالعة والدرس والتدريس والبحث والتحقيق، في ميادين التحرر والصرف والأدب القديم. ولقد توضع في حلقات متآخية، تقدم للناس خبيرة شخصية، وتجارب علمية وثنية، لخدمة لغة القرآن الكريم، وما يلور حولها من العلوم والآداب.

إنها ثمرة معاناة طويلة، وشار لمس كبير، وصدى لجهد مدبد، يتبع الموضوعات الجاهلية قرية من الصواب، وتغل بعضاً من مشكلات الواقع اللغوي أو الأدبي. وقد يسر الله - عز وجل - لذلك كله أن ينتظم في سلك واحد، كتيبات غنيقة لطيفة، مع ماله من اختلاف وتباين، وثقل في ظاهر الأمر.

ولسوف يرى القارئ لهذه السلسلة: إن شاء الله - معلومات متنوعة، تتلور مسائل بعيدة عن التحقيق التراثي، وعن التأليف في واسع للبحوث المتخصصة، وتعالج المشكلات والقضايا اللغوية، وتفكير موضوعي حصيف. وستكون أجيالها رفيعة نشره المؤلف، من مصادر تراثية عتقة، وبحوث علمية مصنفة، للسير في خط واحد، هو الفعل العلمي الكريم.

ISBN 1-59230-149-4



8 781592 391493